الفصل الرابع

الحكاية الشعبية

وهذا نوع رابع من أنواع الادب الشعبى نعرض له بالتعريف الدقيق والبحث • وقد سبق لنا ان فعلنا هذا مع الحكاية الخرافيـــة والاسطورة الكونية وأسطورة الاخيار وأسطورة الاشرار ؛ فحاولنا أن نضع تعريفا محددا لكل نوع وأن نرده بعد ذلك الى مجاله مـــن الاهتمام الروحى الشعبى •

واذا كنا لم نصادف صعوبة فى تعريف الانواع السابقة ، حيث أنها تعرف نفسها بنفسها ؛ وحيث أن كل نوع يتحدد فى ذاته تحديدا تاملا بحيث لا يمكن أن يختلط بغيره من الانواع الاخرى ؛ فاننا لـــن نجد هذا ميسرا فى تعريف الحكاية الشعبية • اذ قد يعترض معترض بأن أى نتاج قصصى شعبى مكتمل يطلق عليه حكاية شعبية • ونحن وان كنا نرى هذا صحيحا الى حد ما ؛ الا أننا نرى وجوب تحديد كل نوع شعبى ؛ حيث أن كل نوع يرتد الى مجال محدد من الاهتمام الروحى الشعبى ، وحيث أن كل نوع ينبع من رؤية محددة فى الحياة • ومن ثم فانه يتحتم علينا أن نطلق على كل نوع اسما يختص به ؛ تمييزا له عن سائر الانواع • والحكاية الشعبية بدورها نوع متميز عن أى نوع أدبى شعبى آخر • ولعلنا نتبين هذا من خلال دراستنا لها وشيكا •

وربما يسر لنا أمر تعريف الحكاية الشعبية رجوعنا الى المعاجم الاجنبية لنعرف تحديدها لهذا النوع من الادب الشعبى • والمعاجـــم الالمانية تعرفها بأنها الخبر الذى يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية عن جيل لاخر ، أو هى خلق حر للخيال الشعبى ينسجه حول حوادث مهمة وشخوص ومواقع تاريخية • أما المعاجم الانجليزية فتعرفها بأنها حكاية يصدقها الشعب بوصفها حقيقة ؛ وهى تتطور مع

العصور وتتداول شفاها ، كما أنها قد تختص بالحوادث التاريخية الصرف أو الابطال الذين يصنعون التاريخ (١) .

وعلى هذا فان التعريفين يشتركان فى أن الحكاية الشعبية قصة ينسجها الخيال الشعبى حول حدث مهم ، وأن هذه القصة يستمتع الشعب بروايتها والاستماع اليها الى درجة أنه يستقبلها جيلا بعد جيل عن طريق الرواية الشفوية .

ولكن ما هو ذلك الحدث المهم الذى يمكن أن يشغل الشعب روحيا فيتدفق خياله بالتعبير عنه فى شكل قصصى تتناقله الافواه ؟ انه بطبيعة الحال الحدث الذى يهم الشعب بوصفه وحدة واحدة ، سواء تمثلت الشعبية فى نطاق ضيق . كالاسرة أو القبيلة ، أو فى نطاق واسع يشمل الشعب بأسره .

ومما لا شك فيه أن هناك ثروة ضخمة من الحكايات الشعبية التى يمتلكها العالم أجمع قد عبرت منذ الازمنة القديمة عن موقف الاسرة أو القبيلة من الاحداث التى يعيشها كل منها . ولا تهدف هذه الحكايات الى عرض تاريخ أسرة أو قبيلة بقدر ما تهدف الى الاشارة الى تاريخ هذه الاسرة أو القبيلة . والى أن دورهما الفعال هو صنع التاريخ . ولذلك فان الحكاية الشعبية تحرص على أبراز سلسلة نسب الاسرة أو القبيلة . فهى تبتدىء بذكر الجد الاكبر الذى يسلم مقاليد الامور الى أولاده ، ومنهم الى أولادهم وهكذا . كما أن العلاقة التى تربط بين الافراد هى قبل كل شىء علاقة الدم . فالافراد الغرباء يظهرون فيها اما بوصفهم قبيلة أخرى أو بوصفهم أفرادا احتضنتهم القبيلة أو طردتهم من بين صفوفها . أما القانون الذى يحكم المجموع فهو قانون القبيلة قبل كل شىء . وليس هناك رئيس أو رؤساء يتحكمون فى قانون العقوبات مثلا ، وانما تتحكم فيه القبيلة أو الاسرة بوصفهما كلا . وتصل شهرة القبيلة والاسرة الى الذروة فى عصر من العصور حينما تبرز بين صفوفها شخصية لها من القوة بحيث تستطيع أن تكيف حوادث العصر ،

Andre Jolles : op. cit. S. 63.

ومن ثم فانها تؤكد موقف أسرتها وتجعلها فى بؤرة المجتمع • ولا يظهر الوعى الوطنى بمفهومه الحديث فى الحكاية الشعبية ؛ وانما تبرز فى الصدارة تلك العلاقة المتينة بين أفراد القبيلة أو الاسرة ، كما أن الحقوق والواجبات التى تبدو أنها تنحصر داخل حدودهما ؛ انما تتجه فى الحقيقة الى المجتمع •

وبهذا نستطيع ان نقول اننا قد وضعنا أيدينا على مجال الاهتمام الروحى الشعبى الذى تنبثق منه الحكاية الشعبية • انه التمسك بوحدة الشعب أو القبيلة أو الاسرة فى سبيل القيام بدور فعال فى بناء المجتمع • وهذا المجال وحده هو الذى يحدد معالم الحكاية الشعبية ويميزها عن سائر الانواع • وعلى ذلك فاننا اذا تحدثنا عن حكاية البطولة الشعبية فاننا لا نعنى بأى حال من الاحوال تلك الروايات الشفوية التى ألفت حول حادثة يعرفها التاريخ أو يجهلها ويلعب فيها بطل تاريخى دورا مهما، ثم يحورها الشعب بمقدرته الشاعرية ؛ وانما نعنى تلك الحكاية التى تمجد بطولة بطل ما بوصفه ممثلا لاسرة أو قبيلة ووارث بطولتها ومجدها • لان تلك الاسرة أو القبيلة هى التى صنعت — من وجهة نظر الشعب — تاريخ بلادها •

واذا كانت الحكاية الشعبية قد نشأت فى الاصل من فكرة تأكيد موقف الاسرة أو القبيلة من المجتمع ، فما موقفها بعد أن جاءت الاديان لكى تلغى العصبيات ؟ فهل استطاعت الحكاية الشعبية أن تكيف موضوعها الاصلى فى ظل تعاليم الدين الجديد ؟ مما لا شك فيه أن الحكاية الشعبية تطورت مع أفكار الدين الذى يعتنقه الشعب كل الاعتناق • وهنا نجد نموذجين للحكاية الشعبية : أولهما ذلك الذى يركز اهتمامه حول قصة بطل واحد ينتسب الى قبيلة كبيرة تكون فى حد ذاتها الجزء الاكبر من شعب بعينه • ولا تهتم هذه الحكاية بتمجيد القبيلة بقدر ما تهتم ببطولة هذا البطل الذى يقود الشعب من الفوضى الى النظام فى ظل تعاليم الدين الجديد ؛ تماما كما يفعل النبى المرسل • وخير مثال لهذا النوع حكاية الاسكندر الاكبر العربية التى وصلت الينا مخطوطة ومدونة ، والتى نود أن نفرد لها ، لاهميتها ، بحثا خاصا •

أما النموذج الثانى وهو الاكثر شيوعا فهو الذى ما زال يحتفظ بتمجيده للاسرة أو القبيلة وبأعمال أبطالهما التى من شأنها أن تحقق هدفا من أهداف الدين • ونحن نود الان أن نقدم نموذجا للحكاية الشعبية نستطيع أن نتبين من خلاله فكرتها وهدفها • والحكاية التى نقدم ملخصا لها هى حكاية عمر النعمان وولدية شراكان وضوء المكان التى تقع ضمن حكايات ألف ليلة وليلة (١) •

وتحكى الحكاية انه كان بمدينه دمشق قبل خلافة عبد الملك بن مروان ملك يسمى « عمر النعمان » وكان من الجبابرة الكبار ، قد قهر الملوك والاكاسرة والقياصرة وكان لا يصطفى له بنار ولا بجارية أحد فى مضمار ، وكان للملك ولد وحيد يدعى شراكان ، ولكنه كان ينتظر ذريه اخرى من جارية رومية تدعى صفيه ، كان قد أهداها اليه ملك قيسارية • وقد كانت تلك الجارية مقربة اليه لجمالها ، ولأنها كانت على وشك أن تضع اما بطنه الثانى الذى انتظره بفارغ الصبر • وولدت له صفية ابنا وبنتا أطلق عليهما ضوء المكان ونزهة الزمان • أما شراكان الذى كان بعيدا وقت ولادة اخوته ، فلم يعلم بميلاد ضوء المكان الذى أخفوه عنه حتى لا يغضب لأن منافسا جديدا سوف يشاركه الحكم بعد أبيه • ثم حدث ان استنجد الغريدون ملك الروم بالملك عمر النعمان ضد ملك قيسارية الذى كان قد وقع فى خلاف مع الملك عمر النعمان فى ذلك الوقت ، واستجاب الملك عمر النعمان لمطلب ملك الروم ، وجهز جيشا جرارا بقيادة ابنه شراكان ووزيره دندان • ورحل الجيش جميعه حتى وصل الى منطقة الحدود بين بلاد العرب وقيسارية • وهناك ترك شراكان الجيش وذهب ليستطلع الامور بنفسه • وفجأة وجد نفسه فى منطقة برارى واسعة • وسمع صوتا أنثويا يدوى فى الفضاء فتقدم بفرسه حيث مكان الصوت ، فاذا به أمام غديات حسناوات متوسطهن أكثرهن جمالا وقد أخذت تصارع كل جارية فتغلبها وتنطلق ضاحكة • فاشترك شراكان معهن فى حديث انتهى بذهابه مع ابريزة البطلة الجميلة الى الدير الذى كانت تسكنه • وبعد أن أظهر شراكان بطولته الفائقة فى محاربة الرهبان الذين علموا بمقدم رجل غريب الى الدير وجاءوا لمحاربته ، أحبته ابريزة كل الحب وأطلعته على حقيقة

---

(١) ألف ليلة وليلة : الجزء الاول ص ١٦٢ — ٣٢٠

أمرها وهى انها ابنة ملك قيسارية • وهنا أحس شراكان أنه قد وقع فى ورطة • ولكن هذا لم يمنعه من ان يكشف لها عن سر مقدمه مع جيشه وهو محاربة أبيها بناء على نجدة طلبها الملك أفريدون من أبيه الملك عمر النعمان • فلما سمعت ابريزة ذلك تعجبت للامر وأكدت له أن طلب أفريدون للنجدة من أبيه يخفى وراءه خديعة كبرى • ثم أخذت تشرح له هذه الخدعة فأخبرته أن صفية جارية عمر النعمان التى أرسلها له ملك قيسارية هدية ذات يوم ، هى ابنة الملك افريدون • ولم يكن يعلم ملك قيسارية حينما أهداها الى عمر النعمان أنها ابنة الملك افريدون ، فقد حملت اليه ذات يوم مع غيرها من النساء بوصفهن غنائم بعد أن قذفت الرياح بسفينتهن الى شواطىء قيسارية • ولما علم افريدون بذلك طلب ابنته من ملك قيسارية • واعتذر له الاخير ، لانها قد أصبحت فى حوزة الملك عمر النعمان ، بل انها قد أصبحت أما لطفلين له • ولما تأكد أفريدون أنه لن يتمكن من استرداد ابنته الا بالخديعة ، استعان بالملك عمر لنعمان حتى يرسل اليه جيشا بقيادة ابنه البطل شراكان فيأسرة فى مقابل اتخاذ الملك عمر النعمان لابنته صفية جاريـــة من جوارية • وصدق شراكان هذا الخبر كل التصديق ، ولهذا فقد استعد للرجوع الى بلاده بعد أن وعدته ابريزة على أن تلحق به فى بغداد حتى يتم زواجها منه •

وبرت ابريزة بوعدها ورحلت الى بغداد وقد أخذت معها تعويذة سحرية هى عبارة عن خرزات ثلاث وذلك لكى تهديها الى الملك عمـــر النعمان • ومن شأن كل خرزة من هذه الخرزات انها تحفظ حاملهـــا من كل شر • ووصلت ابريزة الى بلاد الملك عمر النعمان قبل وصـــول شراكان الذى اشتبك فى أثناء الطريق مع حامية افرنجية وانتصر عليها • وأبدى الملك عمر النعمان اعجابه بابريزة وقرر أن يتزوجها قبل وصول ابنه شراكان • واستاء الابن لتصرفات أبيه فى أثناء غيبته ، وقرر أن يرحل عن بغداد بخاصة وأنه اكتشف أن له أخا أخفاه عنه والده زمنا هو ضوء المكان • ووافق الاب على رحيل ابنه ، ومنحه ، ارضاء له،ولاية دمشق كما سلمه خرزة من الخرزات الثلاث لكى تحفظة فى غربته •

أما ابريزة فقد استقر رأيها على الهروب من بلاط عمر النعمان الى أبيها تحت جنح الليل • ولم تتح لها فرصة الهروب الا قبل ولادة طفلها بأيام • فاصطحبتها خادمتها مرجانة ، وخرجتا خلسة من المدينة • وشاءت الظروف أن تلد ابريزة طفلها فى أثناء الطريق بعد تعب مضن قضى عليها • وأخذت مرجانة الطفل وكان ذكرا وسافرت به الى قيسارية • وذات مرة طلب ضوء المكان من أبيه أن يسمح له بالسفر للحج مع أخته نزهة الزمان • وفى أثناء الطريق حدثت لهما حوادث عدة كانت نتيجتها أن تفرق أحدهما عن الآخر ، ولكنهما بعد مغامرات كثيرة اجتمع شملهما فى بغداد مرة أخرى •

ولم ينس الملك أفريدون ما حدث لابنته ابريزة • فاتفق الملكان على أن يتحدا ضد الملك عمر انعمان ليقضيا عليه • وقد كفتهم العجوز الرومية « ذات الدواهى » مؤونة القتال ، وذلك بأن دبرت مكيدة قضت بها على الملك النعمان •

وكان على ضوء المكان أن يحكم البلاد مكان أبيه ، كما كان عليه أن يصالح أخاه شراكان لكى يشد أزره فى محاربة الروم أعداء الأمة الاسلامية • ورحل جيش المسلمين تحت قيادة ضوء المكان وشراكان الى بلاد الروم • وحاصر القسطنطينية حصارا دام سنين طويلة • ولما لم تسقط المدينة الحصينة ، قرر جيش المسلمين الرحيل على أن يعود لحصارها مرة أخرى ، ولكن ضوء المكان توفى اثر وصوله الى بغداد وخلفه فى الحكم ابنه « كان مكان » الذى صطحبت ولادته عجائب وغرائب ، الأمر الذى استبشر له الشعب العربى وتوقع لذلك له مستقبلا ذا شأن كبير • ولكن لما كان « كان مكان » ما يزال قاصرا فقد سلمت مقاليد الأمور الى حاجب أبيه الساسانى الأصل حتى يشب «كان مكان» عن الطوق • ولكن الحاجب الساسانى استبد بالامر وطرد « كان مكان » من المملكة • ولم يجد « كان مكان » بدا من أن يبرح بغداد من ظلم الحاجب الساسانى • فخرج وحيدا يجوب الصحارى والقفار حتى أبصر تهر الفرات ، فجلس الى شاطئه وهتف قائلا :

خرجت وفى أملى عودة ولكننى لست أدرى متى

وشردنى أننى لم أجد سبيلا لدفع ما قد أتى

ثم توضأ من ماء الفرات وصلى ودعا الله أن يعينه على تحقيق آماله . اذ أنه فى تلك اللحظة شعر أنه قد أصبح المسئول الوحيد عن توحيد الدولة الاسلامية وذلك عن طريق القضاء على أعداء البلاد فى الداخل والخرج .

وحدث بعد ذلك أن تمرد جيش المسلمين ضد الطاغية الساسانى بسبب طرده لـ « كان مكان » . وخرجت زمرة من الجيش من بغداد تلحق بالحاكم الشرعى للبلاد لتكون عونا له . وسعد « كان مكان » بلقائهم ، بخاصة وأن وزيره دندان كان من بينهم . ثم أخذ الجميع يتدبرون أمرهم ، وقر رأيهم على أن يبدأوا أولا بمحاربة الروم الذين قد يعوقون حركتهم فى سبيل الوصول الى هدفهم . وقامت الحرب بين جيش المسلمين وجيوش الروم . وكانت جيوش الروم من الكثرة بحيث استطاعت أن تهزم جيش المسلمين وتأخذ « كان مكان » و « دندان » أسيرين فى بلاد الروم .

فى ذلك الوقت كان يحكم بلاد الروم الملك رومزان ، ولد ابريزة الذى وضعته فى أثناء الطريق وحملته الجارية مرجانة الى بلاد الروم . فلما مثل « كان مكان » ووزيره بين يدى الملك ، أمر الملك السياف بأن يهوى عليهما بسيفه . ولم يكد السياف يفعل هذا حتى جرت اليه الخادمة مرجانة وأمرته ألا يفعل هذا . ثم توجهت الى الملك رومزان وأخبرته أن الذى يطلب رأسه انما هو ابن أخيه ضوء المكان . وفى الحال أمر رومزان السياف أن يضع السيف جانبا ، وطلب من مرجانة أن تشرح له القصة كاملة . فى تلك اللحظة لمح رمزان أن الخرزة التى يعلقها « كان مكان » فى صدره تشبه خرزته تماما . وكان هذا دليلا آخر على صلة القربى بين رومزان وكان مكان . ثم تعانق الملكان عناقا طويلا ، وأعلن رومزان اسلامه فى الحال وأمر بأن تحشد بلاد الروم كل جيوشها لمحاربة الحاكم الساسانى حتى يرجع الحق الى أصحابه .

وهكذا ائتلفت الدولة الرومية مع البلاد الاسلامية تحت حكم المسلمين فكان « كان مكان » يحكم فى بغداد ، و « رومزان » يحكم فى القسطنطينية .

هذا ملخص لحكاية عمر النعمان التى تشغل حيزا كبيرا فى مجموعة حكايات ألف ليلة وليلة . وهى تعد احدى الحكايات الشعبية التى تعكس أحوال الدولة الاسلامية فى حقبة من التاريخ تدهورت بها أحوال الدولة فى الداخل والخارج . ويمكننا أن نقرر تبعا لذلك أن السمة الأولى للحكاية الشعبية هى ارتكازها على الواقع الذى يعيشه الشعب ، والواقع السياسى والاجتماعى معا . والحكاية الشعبية حريصة على أن تشعر القارىء أو السامع بجوها الواقعى حينما تبدأ حوادث القصة بتحديد زمانها ومكانها ، مخالفة فى ذلك الحكاية الخرافية التى يعد انعزالها عن الزمان والمكان من سماتها الأولى . وقد تحدد الزمن فى حكايتنا بالعصر الذى سبق خلافه عبد الملك بن مروان ، كما تحد المكان بتلك الرقعة من الدولة الاسلامية والرومانية التى لعبت فيها الحوادث دورها .

أما عن تعبير حكايتنا عن الاهتمام الروحى الشعبى ، فهو يتضح من خلال مضمونها كل الوضوح . فالحكاية لا تهدف الى ذكر حوادث التاريخ بقدر ما تهدف الى التعبير عن رأى الشعب وآماله ازاء حوادث عصره . ويؤكد هذا أن الحكاية لم تهتم بذكر حادثة تاريخية محددة . وانما اهتمت أكثر من ذلك بالقاء الضوء على العصر فى صورة كلية . فالدولة الاسلامية مفككة بسبب ضعف حكامها . وقد حاول القاص أن يبرز مواطن ضعف الملك عمر النعمان ، فصوره عاكفا على لذاته أكثر منه مهتما بأمور الدولة . وقد أدى هذا الضعف الى سيطرة العناصر الغريبة على البلاد والى تربص البلاد المسيحية المجاورة بالأمة الاسلامية ، منتهزة الفرصة الذهبية لكى تقضى عليها وعلى الاسلام معا . هذه الاحوال السياسية وما تبعها من تدهور فى الاحوال الاجتماعية شغلت الشعب العربى الى درجة أنه حرص فى أغلب حكاياته الشعبية على ابراز

خوفه وأمله ازاء تلك الأحـوال التى يعيشها • ونحن نرى فى قصتنا أن التعبير عن الخوف والأمل قـد تم من خلال عرض الحكاية لتاريخ أسرة الملك عمر النعمان • وليس تاريخ هـذه الأسرة فى الحقيقـة سـوى تاريخ الدوله باسرها • وهـذا هو مجال الاهتمـام الروحى الشعبى الذى تنبثق منـه الحكاية الشعبيه كمـا سبق أن شرحناه • وكـما ان الدوله قـد تصـل فى حقبـه من الزمـن الى حـالة من الاستقرار والمجد بفضل بطـولة بعض أفـرادها الذين يستطيعون ان يجمعوا الشعب حول هـدف واحـد يخدم الشعب كله • كذلك نلاحظ أن أسرة عمر النعمان قـد وصلت بفضل بطولة « كان مكان » الى الائتلاف الذى أدى فى النهـاية الى نصرة الدولة الاسـلامية باسرها • ولم تنس حكايتنا أن تشير بطريقة رمزية الى هـذا اللقاء الأكبر بين أفـراد أسرة قبـل أن يتم • فقـد رأى « رومـزان » رؤيا حكاها لندمائه ليفسروها له ، قال : « رأيت أنى فى حفرة عـلى حافة بئر أسـود ، وكأن أقواما يعـذبوننى ، فأردت القيام ، فلمـا نهضت وقعت على أقدامى وما قدرت على الخروج من تلك الحفرة • ثم التفت فرأيت فيهـا منطقة من ذهب ، فمـددت يدى لآخـذها ، فلما رفعتها عن الأرض رأيتها منطقتين فشددت وسطى بهما فاذا هما قـد صارتا منطقة واحدة » •

وقـد فسر المفسرون له الرؤيا بأن شمله سيجتمع بقريب له من عصبه ، فيتم ونـدرما ويكون لهما النصر • وبهـذا الحلم أشـارت الحكاية الى قرب نهاية حوادثها •

ان الحكاية الشعبية تكون جزءا مهما من تراث الشعوب • وهى فضلا عن استيفائها الشكل القصصى المتكامل ، تطالعنا فى وضوح وصراحة تامة على موقـف الشعب من أحـوال عصره السياسـية والاجتماعية معا • ونحن اذا استطعنا أن نجمـع تراث الشـعب العـربى من الحكايات الشعبية جمعا شـاملا ، فاننا ندرك أن الشعب العـربى قـد عبر عن اهتمامـه الـروحى بحـوادث عصره فى كل حقبـة من تاريخه •

والحقيقة أن جوهر مشكلة الشعب العربى واحد فى جميع العصور ، وان تعددت صور التعبير عنه فى حكاياته الشعبية . فالشعب العربى فى كل عصوره يصارع الظلم والسيطرة الغاشمة ، كما أنه يحلم بالحكم العادل الذى تتم فى ظلاله الوحدة التامة والحياة الاجتماعية العادلة . وكم يذكرنا قول « كان مكان » حينما خرج مطرودا من بلاده بغير حق ، بطائفة من الشعب العربى طردت من بلادها ، وما تزال تنتظر اليوم الذى ترجع فيه اليه وتسترد حقوقها . اننى أخال كل فرد من أفرادها يهتف هتاف « كان مكان » :

خرجت وفى أملى عودة ولكنى لست أدرى متى
وشردنى أننى لم أجد سبيلا لدفع ما قد أتى

على أننانعود مرد أخرى الى تعريف الحكاية الشعبية على نحو ما أوردناه وقدمنا له من شواهد ، لنرى أنه لا ينفى بكل أنماط الحكاية الشعبية التى تحكى اليوم . حقا اننا نجد من بين حكاياتنا الشعبية ما يساير هذا التعريف ، وتنتمى مثل هذه الحكايات فى معظمها الى ما نسميه بالمواويل القصصية ، وهى تلك التى تحكى عن بطل ينتمى الى أسرة أو جماعة ويسهم من خلال أفعاله فى اعادة النظام الى مجتمعه ، ورد ما سلب منه من حقوق . ومثال هذا موال أدهم الشرقاوى وموال أيوب المصرى . ولكن الشعب يحكى الى جانب هذا انماطا أخرى لا تتفق مع هذا التعريف ، وتندرج فى الوقت نفسه تحت نمط الحكاية الشعبية .

ونود الآن أن نأتى بمثال نستخدمه كشاهد لهذا النوع ، وسنرى الى أى حد يتفق ، والى أى حد يختلف مع الحكايات الى سبق الحديث عنها .

يحكى أن صيادا اعتاد أن يذهب كل يوم الى البحر فيصطاد ما يقدمة البحر له من رزق ثم يعود الى بيته راضيا برزقه . وذات يوم خرج يصطاد كعادته ، فوجد ثورا بجانبه حشائش جافة وحزمة

من البرسيم الأخضر • وكان الثور يأكل الحشائش الجافة ولا يلتفت الى البرسيم الأخضر • فوقف الصياد ينظر اليه متعجبا ثم سأله لماذا لا يأكل البرسيم الأخضر وهو متروك له ليأكله • فأجاب الثور بأنه اذا أكل البرسيم الأخضر وشبع ، فسيكون قويا ويرفص • ولم يفهم الصياد مغزى عبارة الثور وتركه واستمر فى سيره نحو البحر ليصطاد• وعندما جر شبكته وجد فى الشباك سمكة واحدة أثاره منظرها ولما أمسك بها ، تحركت السمكة فى الحال وتحولت الى امرأة جميلة ، وقالت له انها خرجت من البحر لتكون من نصيبه • فسعد الصياد بها وذهب الى بيته وتزوجها • واستطاعت المرأة بقدراتها السحرية أن تجلب له الثراء ولم يعد ذلك فى حاجة الى الصيد •

وشاءت الزوجة بعد ذلك أن تختبر مقدار وفاء زوجها لها بعد أن بدأ الثراء يشغله عنها • فسحرت نفسها فى شكل امرأة جميلة أخرى ، وذهبت اليه فى عمله بقصد اغرائه • ثم أخذت تتردد عليه بعد ذلك • وكانت فى كل مرة تعود الى بيتها فترتد الى حالتها الأولى • وكان كل يوم يمر يزداد الرجل ميلا الى المرأة المتنكرة بقدر ما كان يزداد نفورا عن زوجته •

وذات يوم تحدثت الزوجه مع زوجها فى سبب نفوره منها بعد أن كان يعشقها فى بادىء الأمر • ولم يستطع الزوج أن يخفى عنها أنه يعشق امرأة أخرى ولم يعد يرغب فى معاشرتها • عندئذ أخبرته الزوجة بأنها ستعود اذن وتسحر نفسها سمكة مرة أخرى وعليه أن يأخذها ويلقى بها فى البحر • وسعد الزوج بهذا المطلب اعتقادا منه بأنه سيعود ليتزوج عشيقته الجديدة •

وأخذ الزوج زوجته السمكة وذهب بها ليلقيها فى الماء • وما كاد يفعل هذا حتى وجد نفسه يعود الى حالته الأولى أيام أن كان صيادا فاذا به يرتدى الجلباب القديم ، واذا بسلة السمك والشباك بجانبه ، على أنه كان ما يزال يحلم بالمرأة الأخرى وبالثروة التى يختزنها فى خزائنه • فلما عاد لم يجد الثروة ولم يجد المرأة ، بل وجد الثور

الذى صادفه فى بادىء الأمر وكان ما يزال يرتع فى الحشائش الجافة • فقال له الرجل : أما زلت تأكل الحشائش الجافة وتترك البرسيم الأخضر ؟ فأجابه الثور : أما قلت لك اننى اذا شبعت أرفص !

وهكذا تنتهى الحكاية •

من الواضح أن هذه الحكاية تختلف تمـاما عن النمط الأول ذى الطابع التاريخى • كما أن هذه الحكاية ، وان غلفت بجو من السحر ، تختلف كل الاختلاف فى جوها وهدفها عن الحكاية الخرافية •

ان كلا من الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية توظف العناصر السحرية من أجل ابراز المغزى الذى تهدف اليه • فقد وظفتها الحكاية الخرافية بهدف ابراز طبيعة البطل فيها الذى يسعى للوصول الى النهاية السعيدة • ولهذا فان كل ما هو سـحرى فى الحكاية الخرافيـة يخضـع لحركة البطل فيها ، فاما أن تكون القوى السحرية مساعدة له ، وأما أن تكون مناوئة فى أول الأمر ثم ينتصر عليها فى نهاية الأمر •

أما فى الحكاية الشعبية فقد وظفت العناصر السحرية بوصفها رموزا توصل البطل الى حقيقة يجهلها أى أنها توصله الى المعرفة • وهذه المعرفة بعينهـا هى التى يريد القاص أن يوصـلها الى مسـتمعيه ، لا لأنهم يجهلونها ، بل لكى يوقظها فى نفوسهم • وكل من القاص والمستمع يعى تماما مغزى هذه الرموز لأنها ترتبط بحقيقة واقعية يعيشها • ولهذا نجد أن بطل الحكاية الشعبية لا ينغمس كل الانغماس فى العالم الآخر وكأنه امتداد لعالمه كما يحدث فى الحكاية الخرافية ، بل انه على العكس يقف على بعد من هذا العالم الآخر ويتأمله ويرتد منه خائبا بعد أن يدرك عجزه فى ذيم حقائق الحياة التى يريد أن يقهرها فى سبيل تحقيق مطامعه ورغباته الخاصة •

وتتنوع أنماط هذا القص على قـدر تنوع تجارب الانسان فى الحياة ، ولكنها تشترك جميعا فى كونها تسهم فى اعادة النظام والتوازن فى حياة الانسان ، وفى أنها ترد على تساؤلات الانسان ازاء كل مـا

يحتاج الى تفسير وفلسفة سواء فى عالمه المرئى أو فى العالم غير المرئى .

ومن هنا كانت طرافة هذا النمط وأهميته . ان كل حكاية تكاد تكون تأليفا مستقلا بذاته ، ولا تتوالى فيها الأحداث وفقا لنسق معروف وملزم كما يحدث فى الحكاية الخرافية . ان البطل فى الحكاية الخرافية يبدأ مغامراته صغيرا وما يلبث أن يكبر حتى يصل الى الزواج بفتاة أو أميرة لا تنتمى فى الغالب الى عالمنا الواقعى . أما فى الحكاية الشعبية، فان البطل يظهر فيها شخصا كبيرا كامل الادراك . وهو لا يبدأ تجاربه فيها من أجل الوصول الى الأميرة المسحورة . ليتزوج بها بل من أجل الوصول الى الحقيقة التى يجهلها .

على أنه ، مهما يكن الاختلاف بين هذا النمط الأخير والنمط الاول الذى سبقت الاشارة اليه ، فان كلا النمطين مرتبط بواقع الانسان وبواقع مشكلاته . فسواء كان البطل منتميا الى أسرة أو قبيلة ، او كان مجهول الهوية وليست لديه ملامح محددة لأنه يمثل كل انسان . فان البطل بصفة عامة فى الحكاية الشعبية يحقق هدفا له قيمته على المستوى الجمعى وعلى المستوى الاجتماعى .

الاسكندر الأكبر

فى الحكايات الشعبية

ربما لم تظفر شخصية من شخصيات العالم القديم باهتمام شعوب العالم أجمع مثلما ظفرت شخصية الاسكندر الأكبر • لذلك فليس غريبا أن يمتلك كل شعب من شعوب العالم على وجه التقريب حكاية شعبية تروى سيرة الاسكندر بطريقة أو بأخرى •

ونحن نود أن نشير فى هذا الفصل الى أهم الروايات غير العربية التى حكت عن الاسكندر الأكبر تمهيدا لعرضها عرضا مقارنا بالروايات العربية •

وربما كانت أقدم حكاية شعبية تحدثت عن الاسكندر الأكبر هى الحكاية الشعبية الفرعونية التى تحمل عنوان « خدعة الملك نيكانيبو » (١) • ويهمنا أن نلخص هذه الحكاية لأنها تعد الأساس الذى صيغت حوله بعض حكايات الاسكندر الاكبر فى العصر القديم •

وتحكى الحكاية الفرعونية أن الملك نيكتانيو ،آخر ملوك مصر القديمة ؛ فاق كل ملوكها سلالة الآلهة ، فى علم السحر • فما احتاج هذا الملك الى جيش لمحاربة أعدائه ؛ وانما كان يخلو الى نفسه ، حينما يصل الى علمه مهاجمة عدو لبلاده ، ويأتى بوعاء مملوء ماء ويضع فيه نماذج لرجال وسفن من الشمع • ثم يتلو تعاويذه السحرية ، فاذا بالروح يدب فى هذه الأشكال ، واذا بالرجال يضربون السفن فتهوى فى قاع الاناء • وفى تلك اللحظة تكون سفن العدو قد غرقت فى قاع البحر • وبهذه الوسيلة تمتع الملك وشعبه بالسلام زمنا طويلا •

E. Bruner Traut : Althaogyptische Maerchen, S. 157 - 163. (Koeln 1963).

وذات يوم بلغه أن عدوا جبارا يريد غزو بلاده ، فأسرع الى قصره لكى يستخدم وسائله السحرية كما هى العادة • ولكنه فوجئ بأن السفن التسعية لم تستقر فى قاع الاناء فى هذه المرة • وهنا أدرك لتوه أن الآلهة قد غضبت عليه ، فقام من فوره وقص شعره وحلق ذقنه ، وأخذ مبلغا كبيرا من الذهب ورحل الى مقدونية ، حيث لبس مسوح الرهبان ، وأشاع عن نفسه أنه متنبىء مصرى •

ولما اختفى الملك المصرى من مصر ، ذهب المصريون يلتمسون العون من الآلهة لكى تخبرهم بمصير ملكهم • وهنا أجابت الآلهة : « ان ملككم الهارب سوف يرجع الى مصر مرة أخرى فى صورة شاب يقضى على أعدائكم الفرس » • ولم يفهم المصريون وقتئذ هذه النبوة ، ولكنهم شيدوا قبرا لملكهم ونقشوا النبوءة عليه •

وفى هذه الاثناء اشتهر الملك الفرعونى فى مقدونيا بوصفه ساحرا • وبلغ ذلك الملكة أوليمبيا زوجة الملك فيليب ، فاستدعته الى بلاطها فى اثناء غياب زوجها لكى يتنبأ لها بمصيرها • وحضر الملك المصرى الى بلاطها ورآها على ما هى عليه من جمال رائع فأحبها • وأخذت الملكة تسأله عن فنون سحره ، ثم أطلعته على ما يسارها من قلق ، فأخبرته بأن اشاعة تسرى فى ربوع القصر تحكى أن زوجها سوف يطلقها حين رجوعه من الحرب وسوف يتخذ من غيرها زوجة له فأخبرها الملك بأن الاشاعة ليست خاطئة ، ولكنه على أتم استعداد لأن يقدم لها المساعدة بوصفه متنبأ مصريا • أخبرها بأن الها سوف ينزل اليها من السماء فى صورة انسان وسوف ينفخ فيها من روحه فتضع مولودا ذكرا يعوضها الحنان والعطف اللذين حرمهما منهما زوجها • فلما أرادت الملكة أن تستفسر عن هذا الاله ، أخبرها بأنه آمون ذو الشعر الذهبى والقرنين الذهبيين ، كما أخبرها بأنها سوف تراه بعانقها فى رؤياها • حينئذ قالت له الملكة : « اذا رأيت هذه الرؤيا حقا ،

فلن أعدك متنبئا فحسب ، بل سوف أقدسك بوصفك الها » .

واستخدم الملك سحره مرة أخرى ، وتحققت الرؤيا للملكة . فلما استيقظت استدعت الملك المصرى وأخبرته بذلك . ولكنها طلبت منه هذه المرة أن ترى الاله رؤية حقيقيه . فأخبرها بأن ذلك ليس عسيرا ، ولكنه يتحتم عليه أن يسكن فى حجرة بجوار حجرتها حتى يكون فى عونها وقت الحاجة ؛ وحتى لا تنزعج لرؤية الاله آمون . حينئذ قالت له الملكة : « لقد نطقت صدقا أيها المتنبىء . هناك حجرة بجوارى تنام فيها . واذا تمهذا حقا ، فسوف أقدم لك واجب التقديس وأتخذك والدا لولدى » . عندئذ أخبرها الملك بأن حية سوف تسبق ظهور الاله فى حجرتها فاذا شاهدتها فعليها ان تذهب لاستقبال الاله .

وفى أثناء الليل اكتسى « نيكتانيو » بجلد نمر ووضع قرنين على رأسه ، استخدم سحره وارسل الحية الى حجرة الملكة ، ودخل هو من بعدها ، وفى الحال تم زواجها من الملك الذى تقمص روح الاله آمون . وخشيت الزوجة أن يفتضح أمرها بحملها ، وانتابها الذعر حينما علمت أن زوجها أوشك على الرجوع ، فلجأت مرة أخرى الى الملك المصرى تطلب منه العون . عندئذ أخبرها بأن الاله آمون سوف يظهر لزوجها فى منامه ويبرئها من كل عيب .

ورأى فيليب الاله آمون فى رؤياه وهو يحتضن زوجته ويخبرها بأنها ستلد ولدا من سلالة الآلهة . فلما دخل فيليب على زوجته بعد ذلك ، خافت غضبه وقابلته فى ذعر . ولكنه تحدث اليها قائلا : « اننى لا أنسب اليك أى ذنب ، فقد أرغمك الاله على هذا الفعل . لقد رأيت كل شىء فى رؤياى . وليس هناك أحد يستطيع لومك ، فليس فى وسعنا نحن الملوك أن نعارض الآلهة ، ولكنك لا بد أن تحرصى على اشهار ابنك بوصفه ولدى » .

وسمع الملك المصرى بعد ذلك أن الملك المقدونى بدأ يساوره الشك فى علاقته بزوجته . ولذلك فقد شاء أن يقدم لملك مقدونيا دليلا آخر على مقدرته الالهية . فبينما كان فيليب يقيم حفلا فى قصره ، حول الملك المصرى نفسه الى حية أخذت تتحرك بين المدعوين حتى

أتت الى الملكة أو لمبيا ولعقتها بلسانها • وفجأة تحولت الحية الى نسر كبير سرعان ماطار تاركا الزائرين فى عجب من أمرهم • وبعد أيام ، بينما كان الملك فيليب جالسا فى حديقة قصره ، اذا ببيضة تسقطت على الفخاء وتستقر فى حجره • ثم تدحرجت البيضه حتى سقطت على الأرض وخرجت منها حية التفت حول نفسها ، ثم تقوقعت فى البيضة مره أخرى ، ولفظت أنفاسها على التو • واستدعى فيليب حكماءه ليفسروا له ما رآه • فأخبره أحدهم أن زوجته سترزق بولد يملك العالم بأسره ، ولكنه سيلقى حتفه حين رجوعه من مغامراته • ذلك أن الحية رمز للملك والبيضة رمز للعالم •

ثم ولدت أولمبيا ولدا زلزلت له الأرض ، كما أرعد الرعد وأبرق البرق • ولما رأى فيليب هذا قال لزوجته : « ان هذا المولود الذى ولدته ليس ابنا لى ، وانما هو ابن الآلهة • فاتركيه لرعايتها فسوف ترعاه حتى يكبر • على أنه يتحتم عليك أن تطلقى عليه اسم الاسكندر » •

والى هنا تنتهى الحكاية الشعبية الفرعونية • ونحن نلاحظ أنها حرصت على أن تنسب الاسكندر الى سلالة ملوكهم • ولما كان الملوك الفراعنة — وفقا للعقيدة المصرية القديمة — من سلالة الآلهة ، فقد تقمص الاله آمون الملك المصرى أثناء دخوله حجرة الملكة • ولذلك فان الحكاية لا تحكى عن فعلة الملك المصرى بوصفها خدعة • كما أنها برأت الملكة من كل عيب • أما فيليب فلم يسعه الا أن يستسلم لرغبة الآلهة • وقد اعترف فى النهاية بأن الاسكندر ليس ابنه وانما هو ابن الآلهة •

وعلى الرغم من أن الحكاية المصرية لم تذكر ما اذا كان هذا الاسكندر هو الاسكندر الأكبر التاريخى ، فانه حينما استغلت بعض الروايات المتأخرة الحكاية المصرية فى أثناء سردها لمولد الاسكندر ، لم يعد هناك مجال للشك فى أن الاسكندر الأكبر فى الحكاية المصرية انما هو الاسكندر الأكبر صاحب الفتوحات العظيمة •

وأشهر الروايات التى رويت عن الاسكندر الأكبر بعد ذلك تنسب

الى المـــدعو كاليستينس (١) • ويقال أنه كان مؤرخـــا عاش فى زمن الاسكندر الأكبر وتوفى فى عام ٣٢٨ ق•م• على أن هذه الروايات لاتمثل الأصل الذى ربما روى عن هذا المؤرخ أو عن غيره • ويرى الباحثون أن الروايات الاغريقية التى تعد من أقدم الروايات التى رويت عن هـــذا المؤرخ لا تعـــد نتاجا شعبيا صرفا • حقا ان أثر الخيال الشعبى واضح فيها كل الوضوح ؛ ولكنها تتفق فى كثير مع ما رواه بلوتارك عن الاسكندر•

ويهمنا لذلك أن نشير أولا الى تلك الروايات الاغريقية تمهيـــدا لمقارنتها بالروايات العربية •

وقد عثر الباحث الألمانى كارل مولر على ثلاث مخطوطات للرواية الاغريقية مودعة فى المكتبة الوطنية بباريس • ويرجع أقدم هـــذه المخطوطات ــ كما يذكر كارل مولر ــ الى القرن الحادى عشر • أمـــا المخطوطة الثانية فترجع الى القرن الخامس عشر ، وقد دونها راهـــب يدعى نيكتاريوس • وتعد هذه المخطوطة أكمل المخطوطات وأكثرها توضيحا لأثر الدين المسيحى • وقد قام الباحث الألمانى بتحقيق هـــذه المخطوطة بعد مقارنتها بالمخطوطتين الأخريين • وأما المخطوطة الثالثة فترجع الى القرن السادس عشر ، وهى تشير فى كثير من تفصيلاتهـــا الى أن كاتبها سورى مسيحى •

وقد استغلت كل هذه المخطوطات الرواية المصرية فى مطلـــع الحكاية • ولكنهـــا حرصت جميعا على ابراز فعلة الملك المصرى بوصفها خدعة ظلت خافية عن الاسكندر مـــدة طويلة • فهـــى تحكى أن الاسكندر الأكبر طلب من الملك المصرى أن يصعد قمة الجبل لكى يطلعه على الأفلاك وبعد أن فعل الملك المصرى ذلك قذف به الاسكندر الى أسفل الجبل • ثم أدركه فوجده مضرجـــا فى دمائه • ولما سأله الملك المصرى ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، عن السبب الذى دفعه الى فعل ذلك ، أجاب الاسكندر:

Pfaffen Lamprecht : Alexander Gedichte des Zwoelften Jahrhundert. Urtext und Ubersetzung des Pseudo - Kallisthenes (Frankfurt 1850).

« لأنك تعرف أمور السماء ، ولا يعرف أمور الدنيا » • عندئذ أجابه الملك المصرى بأنه ليس فى وسعه على أى حال أن يغير من مصيره المقدر، فقد سبق له أن قرأ فى علم النجوم أنه سوف يلقى حتفه على يد ابنه • ودهش الاسكندر من قوله وسأله عما يعنيه بذلك • عندئذ أخبره الملك المصرى بحقيقة نسبه ثم لفظ أنفاسه •

ثم تمتد المخطوطات الثلاث بسيرة الاسكندر ، فتحكى عن ثقافته الاغريقية على سبيل تأكيد أصله الاغريقى رغم أنه ولد من أب مصرى • ثم تصف شكله فتذكر أنه كان يغطى جسده شعر مثل شعر الأسد ، كما كانت عينه اليمنى سوداء والأخر زرقاء • وأما عن امارات بطولته فقد ظهرت منذ طفولته • فلما توفى فيليب تولى الاسكندر الحكم من بعده ، ولما يبلغ من العمر عشرين عاما • فأرسل اليه دارا — ملك الفرس الذى كان قد دوخ الأمم فى ذلك الوقت — يطلب منه دفع الجزية التى اعتاد أبوه أن يدفعها له • فرد الاسكندر رسول دارا وامتنع عن دفع الجزية ، بل انه هدده بأنه سوف يسترد منه ما سبق أن دفعه أبوه له • فسخر داريوس منه وأرسل اليه هدايا رمزية هى كرة وحذاء يشبه أحذية الخدم وقطعة من الذهب • أما الكرة فلكى يلعب بها الاسكندر حيث أنه ما زال صبيا ، أما الحذاء فرمز لاذلاله ؛ وأما قطعة الذهب فلكى تعينه على الرجوع الى بلاده ؛ اذ كان فى طريقه اليها • ورد الاسكندر الهدايا الى داريوس مع خطاب يفسر له تلك الأشياء تفسيرا مخالفا • فقد ذكر له أن الكرة رمز للعالم الذى سوف يستولى عليه بأسره • وأما الحذاء فسيتخذه وسيلة يدك به عرشه ، وأما قطعة الذهب فرمز لتلك الثروة الطائلة التى سيفوز بها أيضا فى النهاية •

وهناك ابتدأ الاسكندر عهد فتوحاته العظيمة : فقضى على دارا ثم أخضع أثنيا وطيبة وايطاليا وشمال افريقية ثم وصل الى مصر حيث ذكره المصريون بأصله المصرى وتوجوه بوصفه ابنا للاله آمون • وبعد أن فرغ الاسكندر من اخضاع الشعوب المعروفة لديه أراد أن يكتشف العوالم المجهولة حيث يعيش أناس غرباء فى طبائعهم وخلقهم • ومن هؤلاء نساء الأمازون اللاتى كن يفقن أقوى الرجال قوة

ويتميزن بقسوة بالغة • وقد استطاع الاسكندر أن يقضى عليهن • كما استطاع أن يقتفى أثر شعب يأجوج ومأجوج آكل اللحوم البشرية ، وأن يحصرهم بين جبلين • ولما كانت المسافة بين الجبلين شاسعة ، فقد خشى تسربهم الى الشعوب مرة أخرى • ولذلك فقد أخذ يفكر فى وسيلة للقضاء عليهم ، ولكن الحيل أعيته • فتوجه الى السماء ودعا الاله وقال : « ايها الاله الأكبر وسيد المخلوقات ، يا من خلقت كل شىء بكلمة منك ، أدعو باسمك الكريم أن تسد الطريق على هذا الشعب فترتاح البشرية من شره » • وفى الحال اقترب الجبلان أحدهما من الآخر ، وأسرع الاسكندر وشيد بين الجبلين سورا من المعادن المنصهرة •

والى هنا تكاد تتفق الروايات الاغريقية الثلاث • ولكنها تختلف بعد ذلك كل الاختلاف • فالرواية الأولى تحكى أن الاسكندر وصل الى علمه أن نهر الفرات ينبع من الجنة فعزم على الوصول اليها رغم علمه بمشقة الرحلة • واستمر فى سفره حتى وصل الى أسوار الجنة ، فوجد رجلا غريبا يقوم على حراسة بوابتها • فلما رأى الحارس الاسكندر سأله عن مطلبه فأخبره بأنه يود الدخول ليرى بنفسه منبع نهر الفرات • فتعجب الحارس من مطلبه واعتذر له وخوفه من ساكنى هذا المكان • ثم قدم له قطعة صغيرة من الحجر وأخبره بأن هذا الحجر من شأنه أن يطلعه على حقيقة نفسه • فأخذ الاسكندر قطعة الحجر ورجع الى بلاده وقد ملأه اليأس ، ثم اجتمع بالعلماء والفلاسفة وطلب منهم أن يفسروا له لغز هذا الحجر ، فعجز الجميع الا حكيما يهوديا أتى بالحجر الصغير ووضعه فى كفة ميزان ووضع فى الكفة الأخرى حجرا كبيرا يفوق الأول ثقلا ، ولكن الحجر الصغير رجحت الكفة الاخرى • ثم كرر المحاولة عدة مرات ، فكان الحجر الصغير يرجح أى حجر كبير آخر • ثم أتى اليهودى بعد ذلك بحفنة من التراب ووضعها فى مقابل الحجر الصغير ، فرجحت كفة التراب رغم خفتها • وهنا شرح له اليهودى الأمر بأن الحجر الصغير يشبه نفس الانسان التى لا تشبع من الأطماع الا اذا وارا ما التراب • عندئذ عرف الاسكندر حقيقة نفسه ، فكف عن أطماعه وحكم بلاده حكما عادلا حتى مات •

أما المخطوطة الثانية وهى الأكثر اكتمالا ، فتحكى عن رحلة الاسكندر الى بلاد الظلمات . حيث لا يتمكن الانسان من رؤية يده . ويقال أنه اراد أن يصل الى نبع الخلود . فملما سار بضع خطوات فى أرض الظلمات مر فوق رأسه ثلاثة طيور تحدث أحدها اليه وحذره من القيام بهذه الرحلة الشاقة التى سوف يرجع منها خائبا . ولكن الاسكندر استمر فى سيره شهورا طويلة حتى أتى الى نبع تتلألأ مياهه فى الظلمة الحالكة . فاستراح عنده مع رفقائه . وطلب من طاهيه أن يعد له طعاما . فأخذ الطاهى سمكة مملحة ونزل فى النبع لكى يغسلها . ولكنه ما كاد يفعل ذلك حتى عادت الحياة الى السمكة وتسربت الى الماء . وذهل الطاهى ولكنه أدرك لتوه أنه بازاء نهر الخلود . فأسرع وتجرع جرعات من مياهه لكى يكتسب الخلود ، ثم كتم الخبر عن الاسكندر وأعد له طعاما آخر . فأكل الجميع واستأنفوا سيرهم . وقابل الاسكندر بعد ذلك عدة أنبع ولكنه لم يعرف ما اذا كان نبع الخلود من بين هذه الأنبع . ولما لم يصل الاسكندر الى نتيجة من هذه الرحلة الشاقة المضنية ، فقد قرر الرجوع متخذا طريقا آخر غير الذى جاء منه . ومر بمكان تتناثر على أرضه أحجار صغيرة بشكل استلفت نظره ، فطلب من أصحابه أن يجمع كل منهم بعضا من هذه الأحجار ، وقال لهم ان من جمع منها شيئا ندم ، ومن لم يجمع شيئا ندم كذلك . فعكف بعضهم على جمع أحجار منها ، فى حين أن البعض الآخر لم يكترث لذلك ، اذ كان قد أعياه السير . وخرج الاسكندر بعد ذلك الى بلاد النور . فنظر الجميع الى الأحجار فاذا بها ياقوت وزمرد . فندم الذين جمعوا لأنهم لم يجمعوا الكثير منها ، وندم الآخرون لأنهم لم يجمعوا منها شيئا .

وكان الاسكندر قد تعب بحق ، فجلس مع رفقائه ليستريح قبل أن يستأنف سيره . وطلب من رفقائه أن يحكى كل عن مغامرة شائقة له على سبيل التسلى . وجاء دور طاهيه ، فحكى ــ مدفوعا بغرابة ما حدث له ــ عن مغامرته فى نبع الخلود . عند ذاك استشاط الاسكندر غضبا وأردا أن ينتقم من طاهيه . فلما حاول قتله فشل ، لأن الطاهى كان قد اكتسب الخلود بحق . وأخيرا ربطه فى حجر ثقيل ورمى به فى

قاع البحر لكى يعيش حياته الخالدة مع الأحيـاء المائية .

واستقر رأى الاسكندر بعـد ذلك على أن يعود الى بلاده . اذ كانت نفسه قد امتلأت باليأس المـرير بعـد هذه السنوات الطوال من التجوال الشاق . لقـد كان يعتقد ذات يـوم أنه يمتلك مقـدرة الهية تعينه على تحقيق كل أطماعه حتى المستحيل منها . ولكنه أصيب بخيبة أمل كبيرة . حينما أدرك أنه انسان فان كسائر أفراد البشر . لقـد وصل الى نبع الخلود وجلس بجانبه . ولكنه حرم الخلود واكتسبه شخص آخر لم يكن يسعى اليه . هذا الانسان الذى اكتسب الخلود . لم يستفد من الخلود شيئا . فلقد قـدر له أن يعيش حيـاة أبدية مع الأحيـاء المـائية . وكان يتمنى لو أنه حرم هـذا الخلود ومات كسائر أفـراد البشر .

ثم مر الاسكندر ببلاد الهند وهو فى طريقه الى بلاده . فعـرج عليها لأنه شاء أن يستمع الى حكمة حكمائها . وهناك تقابل مع أحـد البراهمة . وطلب منه أن يجيبه عن بعض الامـور التى تشغله . ثم سأله : « هل عندكم قبور » ؟ فأجاب البرهمى : « ان هـذا المكان الـذى نسـكنه هو مكان قبورنا كذلك . فاما أن نجد فيه راحة مؤقتة أو راحة أبدية » . ثم سأله الاسكندر : أيهما أكثر عددا لديـكم : الأحياء أم الأمـوات ؟ أجاب : الأموات أكثر عددا لان الاحياء والاموات سـواء بالنسبة لتصورنا . فنحن نرى الأحياء بأعيننا ولكننا لا ندرك حقيقة وجودهم، تماما كما نجهل حقيقة الأموات » . ثم سأله : « أيهما أقوى، الموت أم الحيـاة » ؟ فأجـاب : « الحيـاة ، لأن الشـمس تضـعف أشـعتها حينمـا تغرب » . ثـم سـأله : « أى، المخلوقـات أشـد كيـدا عـلى وجـه الأرض » ؟ فأجـاب : « الحيـاة ، لأن الشـمس تضـعف أشـعتها حينما تغـرب » . ثم سأله : « أى المخلوقات أشد كيدا على وجه الأرض » ؟ فأجـاب : « الانسان ، ولذلك يجب أن تتأكد من حقيقة نفسك » . وأخيرا سألـه الاسكندر : « ما مـدى سطوة الملوك » ؟ فأجاب البرهمى : « انهـا قوة غير عادلة ، كما أنها الجرأة التى يحالفها الحظ ، انها عبء ذهبـى لا جدوى وراءه » . وقبل أن يرحل الاسـكندر طلب من البرهمى أن يسدى اليه النصيحة ، فقال له البرهمى : « ابتعد عن فكرة الخلود لأنك ميت » . فأجاب الاسكندر : « أننى أعرف أننى ميت ولكن التفكير فى

الخلود يغلبنى دائما أبدا » ، فأجابه : « اذا كنت تعرف أنك ميت ، فلماذا تدفع نفسك فى هـذه المغامرات الشاقة ؟ » فأجاب الاسكندر : « اننا عبيد لرغباتنا ، فلولا الرياح ما تحركت مياه البحر » •

ثم ودعه الاسكندر واستأنف سيره الى بلاده • وذات يـوم جاءته امرأة تحمل طفلا غريبا ، رأسه رأس انسـان وجسمه جسم حيوان •أما الرأس فكان ساكنا بلا حراك ، وأما الجسم فكان دائـب الحركة • ثم طلبت من الاسكندر أن يشرح لهـا سر غرابة هذا المولود • عنـد ذاك أحضر الاسكندر علماء لكى يعينوه على تفسير تلك الظاهرة الغريبه • ولاحظ الاسكندر أن أحـد حكمائه يبكى • فلما سألـه عن سبب بكائه أجابه أن ما رآه يشير الى موت الاسكندر • فرأس الطفل المتحرك رمز الى الاسكندر ملك العالم • والجسم الحيوانى المتحـرك رمز لسائر البشر الذين أخضعهم الاسكندر لسـطوته • ان الرأس قد ماتت وأما الجسم فما زال يتحرك •

وقـد كان ذلك آخر نذير للاسكندر بأنه انسان فان يموت حينما يواتيه أجله •

الى هنا تنتهى الرواية الاغريقية الثانية • أما الرواية الثالثة فلا تسرف فى وصف مغامرات الاسكندر فى العالم المجهول ، كما أنهـا بعيدة عن هـذا الجو الكهنوتى • وانما تسرف فى وصف حروبه المتتالية حتى تصل الى خبر رجوعه الى بلاده ، اثر نبأ جاءه بقيـام ثـورة فى بلاده فرجع مسرعا وأخمد الثـورة • ولكن أحد الثوار دبر مؤامـرة للقضاء عليه ، وذلك بأن اتفق مع أحـد أصدقاء الاسكندر على أن يدس له السم فى شرابه • وتجرع الاسكندر السم وشعر فى الحال بقرب أجله • وفى هذه اللحظة ظهر نجم بصحبته نسر كبير وأخذا يطوفان فى السماء فى سرعة هائلة ، ثم اختفيا معا ومع اختفائهما لفظ الاسكندر آخر أنفاسه • وقـد اختلف قومه حول مكان دفنه ، وأخيرا استقر رأيهم على أن يدفنوه فى ممفيس عاصمة مصر القديمة •

هـذه هى الروايات الاغريقية الثلاث التى روت حـكاية

الاسكندر الأكبر نقلا عن المدعو « كاليستينس » • ويرى بعض الباحثين أن هذه الحكايات كانت تروى فى أول عهـد قيام الدولة البيزنطية على سبيل تمجيد تاريخهم ، اذ من الثابت أنهم يرجعون الى أصل اغريقى • وبعد ذلك هاجرت الحكاية الاغريقية الى بلاد كثيرة ، فرويت باللغات الألمانية واللاتينية والفرنسية والانجليزية • أما الروايات الشرقية فقد تأثرت كذلك بالرواية الاغريقية فيما يرى الباحثون •

وربما كانت الرواية السريانية أكثر الروايات الشرقية قـدما • وقـد عثر « واليس برج » على خمس مخطوطات لهذه الرواية ، فقام بتحقيقها ونشرها عام ١٨٨٩ • وتعد رواية يعقوب السروجى المتوفى عـام ٥٢١ م أكثر الروايات السريانية اكتمالا • ومعنى هـذا أن الحكاية السريانية كانت تروى فى أواخر القرن الخامس وأوائل القـرن السادس • على أنه من الواضح أن الروايات الأخرى التى تلت ذلك لم تأخـذ عن رواية يعقوب السروجى ، فهى لا تحكى عن رحلة الاسكندر فى بـلاد الظلمات ، وعن سعيه للوصول الى نبع الخلود (١) • ومما لا شك فيـه أن الراوى لم يكن ليهمل ذكر هذا الخبر لو أنه يعرفه • فهذا الخبر فضلا عن أنه يقدم للراوى مادة قصصية ممتعة ، فانه من الممكن استغلاله فى التعبير عن عقائد الشعوب ، سواء كانوا وثنيين أم مسيحيين أم مسلمين • وسوف نرى هذا بوضوح حينما نعرض للروايات العربية المختلفة • أمـا الخبر الـذى اهتمت بذكره الروايات السريانية فى اسهـاب ، فهـو حرب الاسكندر مع قبائل الهون ومن بينهم يأجوج ومأجوج الذين كانوا يسكنون بلاد القوقاز • وتحكى الحكاية أن الاسكندر حجز هـذه القبائل وراء سد منيع لكى يكفى الناس شرهم ، مع علمه بأن غـزو هذه القبائل للشعوب الأخرى قـد يكون عقابا لهذه الشعوب لارتكابهـا بعض الشرور • وقـد تنبأ الاسكندر بالدور الذى ستقوم به هـذه القبائل فى اذلال بعض الأمم رغم وجـود السد • وقـد دون هـذه النبوءة على سده المنيع • فذكر أن شعب الهون سيغزو الفرس والروم ثم يرتد ثانيا الى مكانه وراء السد بعد أن تلحق به الـدولة الرومانية

Noeldeke : Beiraege zur geschichte des Alexander-romans, (Extrait de Denkshrift d. Phil. hist. Bd. XXXVIII, Abh. V) S. 4, 5.

وبشعب الفرس الخزى • على أنه اذا كان من الثابت تاريخيا أن قبائل الهون قد اقتحمت أرمينية والبلاد المجاورة عام ٥١٤ م ، فاننا ندرك أن الحكاية السريانية تشير الى حدث تاريخى عاشه الشعب السريانى •

أما من حيث الأصـــول التى استمدت منها الروايات السريانيـــة تفصيلاتها ، فان المؤرخين يذهبون فى ذلك فرقا ؛ فالناشر نفسه يـــرى أنهـــا أخذت عن رواية عربية قديمة • ويرى « نولدكه »غير ذلك ، فقد استطاع ــ عن طريق المقارنات اللغوية ــ أن يؤكـــد الأصول غـــير العربيه التى أخذت عنها الروايات السريانية • وهـــذه الأصـــول امـــا فارسية أو اغريقية أو هما معا •

وبذلك نكون قـــد أشرنا الى أهم الروايات غير العربية التى ربما كان لها تأثير كبير على الروايات العربية المختلفة . ولكننا لن نتبين ذلك فى وضوح الا بعد عرضنا لأهم الروايات الشعبية العربية •

* * *

اذا حاول الباحث أن يحصى الكتب العربية القديمة ، التاريخية منها والأدبية التى أوردت أخبارا عن الاسكندر الأكبر ، فاننا نجدهـــا كثيرة • واذا كان هدفنا فى هذا البحث أن نعرض لسيرة الاســـكندر الأكبر فى الروايات الشعبية العربية ، فاننا نستبعد بادىء ذى بـــدء مـــا ذكره المؤرخون مثل الطبرى واليعقوبى وابن الفقيه عن هـــذه الشخصية التاريخية ، وان كنا لا ننكر أن التراث الشعبـــى المتناقل كان له تأثير كبير على ما دونه هؤلاء المؤرخون • وعلينا تبعا لذلك أن نبحث عن الروايات الشعبية الصرف التى لم يكن هدفها التاريخ بقـــدر ما كان هدفها رواية الحكاية الشعبية بتفصيلاتها الجزئية •

ويهمنا الآن أن نعرض لروايتين عربيتين ، احـــداها وردت فى مخطوط مغربى حققه أميلو غريسه المعيد بجامعة مدريد سنة ١٩٢٩، والأخرى وردت فى كتاب التيجان رواية ابن هشام عن وهب بن منبه ، ثم نحاول بعد ذلك أن نقـــارن بين هاتين الروايتين العربيتين والروايات غير العربية التى سبق أن أشرنا اليها •

أما الرواية المغربية فهى تبدأ بالعبارة التالية : « وخصال الملوك عندك ، أعانك الله على ما ولاك وكفاك ما هو همك • قال : ثم أنهم تقاموا ووكلوا ذا القرنين عليهم ووضعوا تاج الكرامة فوق رأسه •• ثم ان ذا القرنين كتب مكتوبا الى عماله والى أرضه (وقال) : بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فان الله ربى وربكم قد فضلنا بدين الاسلام، وملكنى عليكم رحمة للعباد وعمارة للبلاد وعذابا على الملوك والجبابرة ، فاتقوا الله ربكم الذى يحييكم ويميتكم ثم اليه ترجعون ••• وانى قد رأيت أنه لا ينبغى لأحد أن يعبد الآها غير الله تعالى ، ولا يتخذ معه شريكا ، وانى قد أمرت بكسر الأصنام حيثما كانت فانها لا تضر ولا تنفع » •

ومن هنا نرى أن الحكاية تتحدث عن ذى القرنين بوصفه ملكا عربيا مسلما تتلخص مهمته فى هداية البشر الى الاسلام ، وكسر شوكة الطغاة والجبابرة الذين يرفضون أن يتخذوا الاسلام دينا لهم •

وبعد ذلك تأخذ الحكاية فى وصف حروب القرنين ومغامراته ، فتصف معاركه ضد دارنوش (داريوس) الى أن قتل هذا بيد أصحابه الذين طمعوا فى ارضاء ذى القرنين • ولكن ذا القرنين غضب لفعلة هؤلاء ، وذهب يسترضى دارنوش قبل وفاته • ثم ان دارنوش تكلم وقال له : يا ذا القرنين انظر ــ اذ أنا مت ، فكن أنت خليفتى على أهلى وتزوج ابنتى التى اسمها « وشيف » •

وبعد ذلك قضى ذو القرنين على قوم يأجوج ومأجوج وشيد دونهم سدا من الحديد والرصاص ، وكفى بذلك الناس شرهم • ثم اتخذ بعد ذلك طريقه الى بلاد الظلمات • « فمشى عشرة أيام فى الظلمة على أرض يابسة حتى انتهى الى الجبل المحيط بالدنيا ••• (قال) فانتهى الى ربه فلم يقدر أن يدنو منه لأنه كاد أن يحترق من نوره » • ثم خاطب ذو القرنين ملكا من الملائكة وقال له : « يا أيها الملك المسلط على أطراف الدنيا وأطراف هذا الجبل كأنك تخاف أن يزول من بين يديك » • فرد عليه الملك قائلا : « بل أنت ياذا القرنين ، وما الذى جاء بك الى هذا المكان وأنت انس من ولد آدم الخاطىء ، وكيف قدرت على أن تدخل

هذا المكان الذى لم يدخله أحـد من قبلك فأخبرنى كيف جزت وجئتنى ها هنا » • فأخبره دو القرنين بأن الله هـو الذى منحه القـوة والعزيمة وهداه الى هذا المكان • ثم أخذ ذو القرنين يسأله عن هذا العـالم السماوى الذى يعيش فيه وعن وظيفة هـذا الجبل القائم بحراسته • فأخذ الملك يشرح له أن هـذا الجبل فاصل بين عالم السماء وعالم الأرض • وأنه « أصل كل جبل فى الأرض . وأن الله قد جعل لهذا الجبل عقـلا وذهنا وهو يسمع ويبصر ويطيع الله ربـه ، وبطاعته لربه عظمه اللـه ورفعه على الجبال كلها » • كما جعل عروقه تمتد الى كل المدائن والقرى • « فاذا أراد الله أن يخسف بقرية أو بمدينة أوحى الله الى هـذا الجبل فيضرب عروقه فيتحرك منها عرق واحد فيخسف الله بتلك الأرض • « أما وراء هذا الجبل فيقـع ملكوت السماوات حيث يستوى الله على عرشه • ويحمل هذا العرش ثمانية من الملائكة وبينهم وبين الجبل سبعون حجابا من الملائكة » • ولولا ذلك لاحترق الجبل من نـور الله •

وبعـد أن علم ذو القـرنين ذلك ، ترك المكان ورحل يطلب عـين الحياة • ثم أعطى الخضير ياقوته وقال : « اذا غمتك الظلمة فارم هذه الياقوتة فان الناس يتبعون ضوءها • فان وجدت تلك العين فعسى أن تعلمنى بذلك » • فلما وصلوا الظلمة غاب بعضهم عن بعض ، فلم يـدر الخضير أين يتوجه ، فرمى الياقوتة فاذا هى شفير العين ، ماء الحياة • (قال) فنزل الخضير ونزع ثيابه ودخل العين ثم اغتسـل فيها وشرب منهـا • (وقال) ثم أنه صار ولبس ثيابه وخرج وركب جـواده وصاح فى جنوده واتبعوه » • أما ذو القرنين فانه خرج من الظلمة اذ به يقابل اسرافيل صاحب النفخ فى الصور وهو ينتظر أمر ربه • فأعطى اسرافيل حجرا صغيرا لذى القرنين وقال له : « خذ هذا الحجر فزنه ، فان فيه علما كثيرا » • ثم طلب ذو القرنين من الخضير أن يفسر له لغز هـذا الحجر • فأخذ الخضير يزنه بحجارة أكبر منه ولكنه كان يرجحهـا • ثم أمر ذا القرنين أن يزنه بحفنة صغيرة من تراب ، فاذا بهـذه الحفنة الصغيرة ترجح كفة الحجر • حينئذ قال له الخضير : « نعم أيها الملك انك ملكت الأرض شرقها وغربها فلم يـكفك شىء حتى تناولت الظلمة

وأردت أن تشرب من ماء الحياة ، وسرت حتى وصلت الى صاحب التفخ فى الصور ، والله ياذا القرنين ما يشبع عينيك الا التراب والحجر » .

عندئذ ترك الاسكندر هذا المكان ، ولكنه وجد نفسه فى الظلمة مرة أخرى . وسمع أصحابه خشخشة حوافر الخيل . فقالوا له : « أيها الملك ما هذه الخشخشة التى نسمع تحت حوافر خيلنا » . فقال لهم ذو القرنين : « هذا شىء من أخذ منه شيئا قليلا ندم ، ومن أخذ منه كثيرا ندم . (قال) فأخذته طائفة منهم وتركته طائفة . « قال » فلما برزوا الى الضوء فاذا به جوهر وياقوت وزمرد أخضر . فندمت الطائفة التى أخذت منه القليل . وندمت الاخرى التى لم تأخذ منه » .

ثم ترك ذو القرنين هذا العالم المجهول ودخل مرة أخرى عالم البشر . فكان أول من قابله شيخ قاعد أمام حفرة مملوءة بالعظام وقد أخذ يقلبها بعصاه . فتعجب الاسكندر من أمره ودنا منه وحياه . ثم سأله عما يفعل . فأجاب الشيخ بأنه يصنع هذا منذ أربعين سنه لعله يعرف عظم الشريف من عظم الوضيع والحر من العبد . فلما سمعه ذو القرنين تعجب لكلامه وطلب منه ان يصحبه . فأجاب بأنه مستعد لصحبته اذا استطاع ذو القرنين أن يحقق له أمورا ثلاثة : أن يعجل أمرا أراد الله تأخيره ، وأن يؤخر أمرا أراد الله تعجيله . وأن يحول بينه وبين الموت . فلما اعتذر ذو القرنين عن تحقيق هذه الأمور ، أجاب الشيخ : « فما أصنع بصحبتك ، والله لا أتبعك شبرا واحدا » .

ولم تثن كل هذه المغامرات ذا القرنين عن عزمه فى اكتشاف سائر جهات الأرض ، فقام وحده بمغامرات فى البحار ليستكشف أسرارها . وأطلعه الملك الموكل بالبحر على كل ما يرغب فى معرفته ، كما ساعده بعد ذلك فى اللحاق بقومه . ثم مر ذو القرنين بأرض بابل وهناك سمع هاتفا ينذره بقرب وفاته ويقول له : « ياذا القرنين انك بالأرض المقدسة ، واعلم أنه سيقتلك بعض من أصحابك فلا تسألنى عن شىء آخر » .

وكانت آخر مغامرات ذى القرنين مع جماعة من النساء الغربيات اللاتى اشتهرن بقوتهن البالغة ، وكن يعيشن وحدهن دون أن يختلطن بالرجال الا فى يوم واحد من كل عام . فأرسل ذو القرنين اليهن يطلب منهن الاستسلام ، فحاولن أن يصالحنه حتى يتمكن من القضاء عليه . وبعد أن ركن ذو القرنين اليهن أوقعنه فى حبالهن وسقينه السم . ولما شعر ذو القرنين بدبيب السم فى جسمه كتب الى أمه على الفور يقول لها : « أما بعد يا أمى اذا وصلك كتابى هذا ، فاجمعى أهلى كلهم وأقرئيهم منى السلام ، فانى اتعذب من شر النساء ومكائدهن . وأنت يا أمى لا تبك على ، فلو كانت الدنيا تدوم لكان رسول الله حيا وباقيا » .

بهذا ينتهى نص الحكاية المغربية .

أما الحكاية العربية الثانية فهى تبدأ بالخبر التالى الذى يرويه أبو محمد . يقول : « لقيت جماعة من العلماء يقولون ان لقمان وذا القرنين ودانيال أنبياء غير مرسلين ، وعامة الناس يقولون عبادا صالحين . والله أعلم بذلك (١) » .

ثم يرجع الراوى بعد ذلك نسب ذى القرنين الى قبيلة حمير التى تنتسب بدورها الى سام بن نوح عليهم السلام (٢) . وقد كان ذو القرنين يسمى فى بادىء الامر بالصعب ابن الحارث الرائش . ولما تولى الملك « برز للناس بعد الحجابة وتواضع وانبسط بعد العزة والقوة وجلس بين الناس ودخل قلبه وحشة خوفا من الله ، ثم أمر بالعرش فأخرج ، ثم قال : أيها الناس اهتكوا العرش ولكن بد ما أخذت . غهتك العرش » . ورأى الصعب فى بداية توليه الملك رؤية غريبة لم يستطع أحد تفسيرها . وأشار عليه قومه أن يلجأ الى بيت المقدس حيث يعيش نبى البيت المقدس . فرحل الصعب بعد أن أدى فريضة الحج ووجد هذا النبى وسأله : « أنبى أنت ؟ قال له موسى

---

(١) أبو محمد عبد الملك ابن هشام : كتاب التيجان فى ملوك حمير ص ٧٠ (دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٤٧ هـ) .

(٢) المرجع السابق ص ٨١ .

الخضر : نعم • قال له : ما اسمك ونسبك ؟ قال : موسى الخضر بن خضرون بن عموم بن يهوذا ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل عليه السلام • قال له الصعب : أيوحى اليك يا موسى ؟ قال له نعم يا ذا القرنين • قال الصعب له يوما : هذا الاسم الذى دعوتنى به ، ما هو ؟ قال : أنت صاحب قرنى الشمس • وذلك أن أول من سماه ذا القرنين هو الخضر » •

ثم طلب ذو القرنين من الخضر أن يصطحبه فى مغامراته فرضى بذلك الخضر • وسارا يطوفان أنحاء العالم المعلوم فاذا بهما أمام أقوام غرباء يؤذون سائر البشر بوحشيتهم وضلالهم • فقضى عليهم ذو القرنين قوما بعد الآخر • ولما فرغ من ذلك طلب من الخضر أن يصطحبه فى بلاد الظلمات ، فطاوعه الخضر • فلما دخلا عالم الظلمة قابلهما مكان زلق • فتساءل رفقاء ذى القرنين عن هذا المكان • فقال لهم : « أنتم بمكان من أخذ منه ندم ومن تأخر ندم » فلما خرجوا الى النور وجدوا أن ، ما جمعوه من أرضه زمرد وياقوت • فندموا لانهم لم يجمعوا الكثير منه • ثم دخل ذو القرنين بصحبة الخضر عالم الظلمة مرة أخرى ، فشاهد صخرة تشع نورا ، وقد تعلق بقمتها ثلاثة من النسور • فلما حاول ذو القرنين أن يرتقى الصخرة انتفضت النسور وارتعدت ، فظل جامدا فى مكانه • فلما حاول الخضر أن يصعد الصخرة سكنت النسور ، فصعدها بمفردة حتى بلغ قمتها • وهناك سمع منادیا يقول له : أمض أمامك فاشرب فانها عين الحياة ، وتطهر فانك تعيش الى يوم النفخ فى الارض فتذوق الموت حتما مقضيا •• فمضى حتى انتهى الى رأس الصخرة ، فرأى عينا ينزل فيها ماء من ماء السماء ، فشرب منه وتطهر •• فلما رجع الخضر الى ذى القرنين قال له : يا ذا القرنين انى شربت من ماء الحياة وتطهرت منه ، وأعطيت الحياة الى يوم النفخ فى الصور وموت أهل السماء والارضين ، ثم أموت حتما مقضيا • ومنعت أنت ذلك ، ولك مدة تبلغها وتموت فارجع فليس بعد ذلك مزيد لانس ولا جن » • فلما سمع ذو القرنين ذلك ، ارتد الى عالم النور ، فاذا بهاتف من السماء يدعوه باسمه ويقول له : « يا ذا القرنين اطلع مشارق الارض ، فانها ثلاثمائة مطلعا ، تحت كل مطلع أمة لا يعرفون

الله ولا يوقنون بالبعث ، فبلغ حجة الله وأقمها على من لايعلم وعده ووعيده » .

عندئذ عرف ذو القرنين أن مهمته قاصره على هداية البشر وليس له بعد ذلك مطلب . فرحل لقضاء مهمته ، وقاتل وحارب كثيرا من الاقوام من بينهم يأجوج ومأجوج . ولكن نفسه راودته بعد ذلك أن يدخل عالم الظلمات مرة أخرى ، فاذا به أمام دار بيضاء ، على بابها رجل مرتد أردية بيضاء . وعلى سطحها رجل آخر ممسك فى يده شيئا كالمزمار ، وعيناه تشخص الى السماء . فاما أبصره الرجل الواقف بالدار قال له : « يا ذا القرنين أتم يكفك أرض الانس والجن حتى أتيت أرض الملائكة » . فلما سأله ذو القرنين عن حقيقة هذه الدار قال له . « هذه الدار دار الدنيا ، وهذا الذى عليها ملك من ملائكة الله أوحى اليه أن أن يريك كيف أخذ اسرافيل الصور وعيناه شاخصتان الى العرش ينظر متى يؤمر بالنفخ فى الصور » ثم قدم له حجرا وقال له : « زنه بما ترى عينك كيف فى الدنيا ، فان لك فيه عظة وعبرة» .فأخذ ذو القرنين الحجر ووزنه بجميع جواهر الارض فرجح الحجر . ولم يزل يزنه بالحجر العظيم والحديد فرجح عليه » . وكان الخضر ينظر اليه ساكتا . ثم قال له ذو القرنين : « يا ولى الله هل عندك علم عن هذا المن ؟ قال له نعم . هذا الحجر مثل لعينيك ، (ولا) يملأ عينيك جميع ما فى الارض ، مثل هذا الحجر الذى لم يرجع عليه شىء فى الارض » .

ثم سار ذو القرنين يريد بلاد الهند حتى بلغ قطربيل ، فوجد بها قوما سموا بالترجمانية « لأنهم ترجموا صحف ابراهيم بلسانهم » . فوجدهم قد سكنوا مقابرهم . ولا غنى فيهم ولا فقير ، ولا قاض ولا أمير ، ورأى مواشيهم بلا رعاة ، ورآهم يسكنون بجوار الانهار ، فى خلاء من الارض وقفار . فسألهم ذو القرنين : « ما بالكم سكنتم المقابر ؟ قالوا يا ذا القرنين سكناها لئلا ننسى الموت ونطمئن الى الحياة وتستهوينا الدنيا . وأنا الارض كالبحر ، يسلكه المرء فيخطى قدميه ، ثم يمضى فيخطى ساقيه ، ثم يتمادى فيعلو حقويه ، ثم يمضى فيعلو منكبيه ، ثم يعلو رأسه ويضطرب بيديه ورجليه ، فتقلبه أمواجه ،

فتذهب به حيث شاءت فلا يدرى ما تحته من الهواء ولا ما فوقه من السماء • فكذلك تستدرج (الحياة) المرء ، تخدعه ويتبعها . حتى اذا لجت سارت به حيث شاءت • والدنيا دار ابليس والاخرة دار الله » • ثم سألهم : وما بالكم أركم ليس فيكم غنى ولا فقير ؟ • قالوا : انا وتستهوينا الدنيا • وأنا رأينا الارض كالبحر ، يسلكه المرء فيغطى لا غنى له من الضعيف . والضعيف لا قوام له دون القوى . وانه متى هلك الضعيف منا هلك القوى ، ومتى هلك القوى هلك الضعيف ، فتساوينا لئلا يكون فينا ضعيف يحسد قويا ويبغضه . ولا يكون قوى يحقر ضعيفا » • ثم سألهم : « ما بالكم بين أنهار وأنتم فى خلاء وقفار ليست لكم الا عمارة يسيرة ؟ قالوا له : اكتفينا بالقوت ويسير المعاش • قال لهم أحسنتم فى جميع أفعالكم خلا عمارة الارض • اعمروها لعقبكم، فان العقب ان لم يجد متعه يتمسك بها فى معاشه تطاول الى ما فى يد غيره ، فحمل نفسه على الهلكة . فلا دنيا ولا آخره ••• » •

ثم مرض ذو القرنين بعد ذلك . ومات • واختفى الخضر مع موته ، « ولم يظهر الى أحد بعده الا الى موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم» • ودفن ذو القرنين بحنو قراقوش أرض العراق •

ولعلنا ندرك بعد عرضنا لهاتين الروايتين العربيتين أن هناك صلة قوية بين الحكاية العربية بروايتيها وبين الحكاية الاغريقية الكاملة • ولا تتمثل هذه الصلة فى اتفاقهما فى بعض الحوادث التفصيلية . بل تتمثل فضلا عن ذلك فى الهدف التعليمى المشبع بالروح الدينى • ولا شك أن اتفاق الحكايتين فى كثير من التفصيلات يدعونا لان نفترض تأثير احدى الحكايتين على الاخرى • ويمكننا أن نجمل الحوادث المشتركة فى الحكايتين فيما يلى :

أولا : عزم الاسكندر ذى القرنين على اكتشاف العالم المجهول •

ثانيا : السعى فى سبيل الوصول الى نبع الخلود •

ثالثا : فشل الاسكندر فى الحصول على الخلود فى الحكايتين ، فى حين اكتسبه الطاهى فى الحكاية الاغريقية ، والخضر فى الحكاية العربية •

هاذا عرفنا أن الحكاية الاغريقية تشير الى أن الطاهى « اخضر » لونه بعد أن اكتسب الخلود، استطعنا أن نربط بين الشخصيتين •

رابعا : تسلم الاسكندر الحجر الصغير من شخصية مجهولة ، وقد كان هذا الحجر وسيلة لتبصيره بحقيقة نفسه •

خامسا : عثور الاسكندر فى بلاد الظلمات على الأحجـــار الكريمة التى نصح أصحابه بجمعها •

سادسا : مقابلة الاسكندر للهنود الحكماء الذى أطلعوة عن طريق فلسفتهم وحكمتهم على حقيقة الحياة وحقيقة نفسه •

سابعا : حارب الاسكندر فى الحكايتين دارا وقوم يأجوج ومأجوج، كما حارب نساء الأمازون •

على أنه ليس من السهولة بمكان ــ رغم وجوه التشابه العديدة بين الحكايتين ــ أن نقرر ما اذا كانت احدى الحكايتين قد تأثرت بالاخرى • هذا وان كان بعض الباحثين يرى أن الروايات السريانية كان لها أكبر الأثر على الروايات العربية • فهم يذهبون الى أن تسمية الاسكندر بذى القرنين انما نقلت الى الحكاية العربية من الحكاية السريانية التى روت أن الاسكندر الاكبر كان له قرنان وكان كلما وقع فى مأزق دعا الله وقال : « اللهم اننى أعرف أنك منحتنى قرنين لكى أضرب بهما ممالك الارض جميعها » ولكننا سبق أن رأينا أن هذا الخبر قـــد ورد ذكـــره فى كل الروايات على وجه التقريب حتى فى أقدم الروايات وهى الفرعونية • فقد دخل الملك نيكتانيبو حجرة الملك أوليمبيا زوجة الملك فيليب وهـــو واضع قرنين على رأسه اشارة الى أن الاله آمون قد تقمصه • وليس ببعيد أن يولد الاسكندر بقرنين كذلك لأنه اعتبر ابنـــا للاله آمـــون • فالرواية السريانية لم تنفرد ــ بناء على ذلك ــ بذكر هذا الخبر • حقا قد تكون الرواية العربية صدى للرواية السريانيـــة أو العكس ، فربما جعلت الحكاية العربية الاسكندر الاكبر أشبه بنبى عربى مسلم . ردا على الرواية السريانية التى جعلته وليا مسيحيا •

وعلى ذلك فليس فى وسعنا أن نقرر ما اذا كانت الرواية العربية قد تأثرت بالرواية السريانية دون غيرها ، بخاصة أن الرواية العربية قد أتت بكثير من التفاصيل التى لم ترد فى الرواية السريانية ، فى حين أنها وردت فى الرواية الاغريقية • ولا تعنى بهذا أن الرواية الاغريقية تعد الاصل الذى ارتكزت عليه الرواية العربية ، ولكننا نود أن نؤكد أهمية الدور الذى تلعبه الرواية الشفوية فى تشابه التراث الشعبى فى جميع أنحاء العالم •

ومهما يكن الامر فاننا ازاء حكاية شعبية ممتزجة الى حد كبير بأسطورة الاخيار • ومن الملاحظ أن الاسكندر الاكبر انتسب الى عدة شعوب وعدة ديانات • فهو مصرى فى الحكاية المصرية واغريقى فى الحكاية الاغريقية ، وعربى مسلم ينتسب الى قبيلة حمير أو الى الشعب بصفة عامة فى الحكاية العربية ، وهو مسيحى فى الرواية السريانية ، ويهودى فى الحكاية العبرية • وهذا يؤكد لنا ما سبق أن ذكرناه من أن الحكاية الشعبية تهدف الى تمجيد بطل تاريخى تمجيدا يضعه فى صورة بعيدة عن الصورة الحقيقية • وهى فى تمجيدها لهذا البطل ، انما تهدف فى الحقيقة الى تمجيد شعب أو قبيلة أو أسرة ، وتأكيد موقف كل من حوادث عصره • وقد رأينا أن الروايات التى ألفت حول شخصية الاسكندر الاكبر ، وان كانت قد ركزت كل حوادثها حول هذا البطل ، الا أنها حرصت كل الحرص على أن تبرزه خادما لشعبه لا عبدا لمطامعه الشخصية • وقد أشارت الحكاية المغربية الى هذا المعنى من خلال حديث رفعته الى النبى صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم بصحته ، وهذا نصه : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله أخى ذا القرنين ، دخل الظلمة راغبا وخرج منها زاهدا ، أما أنه لو خرج منها راغبا ما ترك فيها حجرا الا وأخرجه » •

***

وقد ننتهى بعد ذلك بأن تعريف الحكاية الشعبية بهذه الصورة المحددة انما هو تعريف يتسم بالقصور • فماذا عن الحكايات القصيرة التى تروى فى جو واقعى ولكنها لا تحكى عن موقف الاسرة أو القبيلة

من حوادث عصرهما ؟ ونحن نرد على ذلك بأننا انما نهدف الى تحديد الشكل الادبى فى صورته الاولى • وهذا لايمنع أن تتفرع عن الشكل الاصلى حكايات قد لا تنطبق عليها تعريفاتنا كل الانطباق • فقد نشأت على سبيل المثال حكايات متأثرة بالاسطورة وبالحكاية الخرافية فأصبحنا نملك نماذج تجمع بين ملامح الاسطورة وملامح الحكاية الخرافية فى وقت واحد • وخير مثال على ذلك حكاية الاخوين الفرعونية التى قدم لها « فون دير لاين » ملخصا وافيا فى كتابه « الحكاية الخرافية » • كما تفرعت عن الحكاية الخرافية أشكال أخرى قد لا تنطبق عليها أوصاف الحكاية الخرافية الاصلية كل الانطباق • ومثال ذلك حكايات الفشر الخرافية ، وحكايات الشطار ، وحكايات الالغاز الخرافية ، وهى أنواع أشار اليها الكاتب « فون دير لاين » كذلك •

وبالمثل فقد تفرع عن الحكاية الشعبية الاصلية حكايات شعبية أخرى ، تشعر القارىء لاول وهلة أنها بعيدة عن تعريفنا السابق • على أنا اذا أمعنا النظر فيها فاننا يدرك أنها تنحصر فى مجال الاسرة ، وان لم يقم البطل فيها بدور فعال فى المجتمع • وقد يكون هذا تطورا أخيرا للحكاية الشعبية بعد أن انتهى عصر النزعات القبلية ، ولم يبق بعد ذلك سوى أن تنحصر البطولة داخل الاسرة أو بين شعب بعينه •

ومثال ذلك حكاية الفتى مع ابنة عمه التى نقلها الينا الدكتور عز الدين اسماعيل عن النوبة فى أثناء زيارته لها • فقد قرر والد الفتى أن يزوج ابنه لابنة عمه حينما يكبران • ولما كبر الابن رحل الى القاهرة وظالت غيبته على ابنه عمه التى ظلت تنتظره حتى يتم زواجهما • ويبدو أن ابن عمها كان قد نسيها • وذات يوم كانت تجلس تصنع أطباق الخوص فمرت بها جماعة من التجار قاصدين القاهرة • فتحدثوا الى الفتاة وعرفوا منها قصة انتظارها لابن عمها ، وعرفوا منها اسمه وصفته • فلما وصلت الجماعة الى القاهرة جدوا فى البحث عن ابن عمها حتى وجدوه يعمل فى مقهى • فجلسوا معه وشربوا معه الشاى ثم غنى أحدهم أغنية أثارت فى نفسه الحنين الى بلاده والى ابنة عمه • فقرر أن يعود اليها • ولكنه فوجىء — حينما وصل الى أهله — بأن أمه قررت أن يتم زواجه من ابنة خالته • وهنا احتار الابن ، فهل يمكنه أن يتحلل من الكلمة التى التزم

بها أو التزم بها أبوه ذات يوم . فيكون فى ذلك تحطيم للعرف المعروف فى النوبة وهو زواج الابن من ابنه عمه ؟ أم هل فى وسعه أن يضرب بقرار أمه عرض الحائط فى سبيل أن ينفذ الوعد الذى اتفق عليه ؟ ولكن سلطة الام كانت أقوى من كل شىء . فانتقل الابن الى ضفة النيل الاخرى حيث تم زواجه من ابنه خالته . ثم تعود جماعة التجار فيصادفون الفتاة جالسة فى نفس المكان الذى وجدوها فيه اول مرة . وعرفوا منها قصة زواج ابن عمها بابنة خالته . فانتقلوا على الفور الى الشاطىء الآخر واجتمعوا بالزوج الذى رحب بهم ، ثم أخذوا يغنون نفس الاغنية التى أثاروا بها حنينه الى بنت عمه حين لقوه فى القاهرة . فتعود نفسه تتحرك مرة أخرى نحو بنت عمه . ثم يغافل زوجته وينتقل الى الشاطىء الآخر حيث يتزوج بنت عمه التى كانت ما تزال تنتظره .

وواضح أن بطل هذه الحكاية تنحصر أعماله داخل نطاق أسرته . وقد تهدف الحكاية من وراء ذلك الى تصوير مدى خضوع الفرد فى النوبة للعرف السائد . وقد تهدف الى تصوير موقف الابن من سلطة الاب وسلطة الام . ولكنها على كل حال لم تصور بطولة البطل خارج نطاق أسرته .

وهذه حكاية شعبية أخرى من هذا النوع رويت عن المنطقة الجنوبية الغربية فى فرنسا (١) . وهى حكاية تكشف عن عقدة أوديب ، وان يكن عن غير عمد .

يحكى أن ملكا قويا كان يحكم فى مملكة من الممالك . وقد كان هذا الملك عادلا كريما طيب القلب بقدر ما كان قويا . وكان لهذا الملك ولد قسا عليه فى تربيته حتى يصبح ملكا قديرا مثله فيما بعد . ولما بلغ الابن الحادية والعشرين من عمره قال له أبوه : « استمع الى يا ولدى، انك تعرف مقدار حبى لك . فأنت شجاع وعادل وقوى . غدا ستبلغ الحادية والعشرين من عمرك ، وعما قريب ستصبح ملكا . وحتى يأتى

---

(١) Max Luethi : Volkemaerchen und Volgssage, S. 101 - 101, Muenchen 1961.

هذا اليوم . خذ ما شئت من الخيول . وما شئت من الذهب ، واخرج للقنص . واستمتع بحياتك ، ولا تنس أن تصلى للاله ، وأن تبحث لك عن زوجة صالحة . ففى خلال ستة أشهر ينبغى عليك أن تكون متزوجا . وبدت الام جالسة وهى تصغى لهذا الحديث ، وما أن نطق الملك بالكلمات الاخيرة حتى قالت لنفسها « بعد ستة أشهر لن تكونى سيدة القصر » . فلما انصرف الملك قالت لابنها : « استمع الى يا ولدى . اخرج الى القنص كما قال لك والدك . وخذ ما شئت من الخيول والذهب ، واستمتع بحياتك . وصاحب من شئت من النساء . ولكن لا تتزوج فانت ما تزال صغيرا » . ولم يرد الابن على قولها ولكنه طأطأ رأسه .

وبعد وقت علم الملك أن ابنه لم يعثر بعد على فتاة يتخذها زوجة له . فقال له : « اذا كنت يا ولدى تتوانى فى الزواج . فسوف أبحث لك عن الفتاة التى تصلح أن تكون زوجة لك » . وبعد ايام دعا الملك صديقا له مع ابنته . وأعجب الولد بالفتاة وأحبها وقرر أن يتخذها زوجة له . وسعد الاب بهذا القرار وشرب مع ابنه نخب سعادته . وكانت الام جالسة ترى وتسمع . فقالت على انفو : « ونخبى أنا . ألا تشربانه ؟ » وسرعان ما أفرغت الخمر فى الكئوس وشرب الجميع نخب الام . وما كاد الاب يشرب كأسه حتى تغير لونه وسقط على الارض ميتا .

ولم يعرف الابن سبب موت أبيه . ونام فى حجرته حزينا بعد أن دفن والده . فاذا بشبح أبيه يرمقه ويقول : « ان أمك أعطتنى السم وقتلتنى . وقد أصبحت الآن ملكا من بعدى . فانتقم لى » . واستيقظ الابن مذعورا . وهب من فوره . وامتطى صهوة جواده وذهب الى صديق عزيز لديه . وقرع بابه وقال له : « استمع الى يا صديقى ، ان الحظ العثر يقتفى أثرى . اننى ذاهب الى حيث لا أدرى . وعليك أن تذهب فى الصباح الى محبوبتى وتخبرها بذلك . وعليك أن تبلغها كذلك أن تسكن الدير . فأنا لن أبحث عن زوجة بعدها » ثم خرج وهو يقول : « لبيك يا والدى . سوف أنتقم لك » . وخرج الشاب هائما على وجهه ، وعاش فترة بعيدا عن وطنه . ولكن الشبح ظهر له مرة أخرى وأعاد عليه عبارته السابقة ، فقرر الابن أن يرجع الى قصر أبيه ، ولكنه : ار

صديقه من قبل وسأله عن محبوبته • فأخبره بأنها توفيت فى الدير • فسأله عن أمه ، فقال له ، انهـا ما تزال تعيش وأصبحت ملكة على البلاد • فدخل الابن القصر ، وقابلته أمه وسألته عما كان يفعله فى أثناء تلك الغيبة الطويلة • ولكنه قبل أن يجيب عن سؤالها ، طلب منها أن تعد له الطعام لانه جائع • فلما جلس ليأكل معها قال لهـا : « انك يا أمى تريدين أن تعرفى ما فعلته خلال تلك الغيبة الطويلة • لقد كنت أطوف فى أنحاء العالم • وقد تزوجت ، وغدا ستكون زوجتى هنـا معنـا » • فلما سمعت الام ذلك قالت له : « سوف تأتى زوجتى غـدا ؟ انه لشىء جميل حقا ، هيا اذن نشرب نخب سعادتكما » • ولما سمع ذلك الابن انتزع من وسطه خنجرا وقال لها : « استمعى الى أمى ، انـك ترغبين فى اعطائى السم ، وأنا أسامحك على ذلك • أما أبى فلن يغفر لك • لقد ظهر لى شبحه أكثر من مرة وطلب منى أن أنتقم له ، فاذا لم تشربى الكأس الذى أعدته لى فسوف أقتلك بخنجرى » • ورفعت الام الكأس وشربته • فلما جاءت على آخره ناداها قائلا : « أطلب منك العفو يا أمى المسكينة » • ولكنها أجابت : « لا •• لن أصفح » • وامتقع لـون الام وسقطت جثة هامدة • أما الابن فقد تلا صلواته وامتطى صـهوة جواده ، وخرج فى الليل المظلم ، ولم يره أحد بعد ذلك •

فهذه حكاية أخرى تحكى عن بطولة البطل داخل نطاق أسرته • وهى مثل الحكاية النوبية تصور البطل حائرا بين تحقيق رغبة أبيه التى تتفق مع رغبته ، وتحقيق رغبة الام التى لم تصادف هوى فى نفس الابن ، وهو رغم ذلك لم يتمكن من الجهر برفضها • وقد كانت سلطة الأم قوية على الابن ، حتى تبين له غدرها وحرصها على الاحتفاظ بسلطتها عليه • وعندئذ انتقم منها الابن كما انتقم لابيه الذى لقى حتفه غدرا •

ولعل القارىء يتساءل بعد ذلك عن موقف كل من الملحمة والسيرة من الانواع الادبية التى ذكرناها • اذ أننا لم نتعرض لهما • وهنا نقـول أن كلا من الملحمة والسيرة تعد حكاية شعبية ذات شكل معـين • فالملحمة قصيدة طويلة تصور البطولة من خـلال تصـويرها لحوادث تتسم بطابع الاهمية والعظمة • واذا ذكرنا الملحمة فاننا نعنى ملحمتى

هومير الالياذة والاوديسة • والرأى الاخير الذى انتهى اليه الباحثون بشأن هاتين الملحمتين هو أنهما تطورتا عن التراث المتوارث للقبائل والمجتمع ، وأن الجامع الاخير لهذا التراث فى شكل أدبى منظم هو هومير (١) • وعلى الرغم من أن هومير فى الالياذة كان يهدف الى ابراز صورة البطولة فى عصره ، تلك التى تختلف كل الاختلاف عن بطولة العصر البدائى ؛ وعلى الرغم من أن الملحمة تركزت حول قصة أشيل حينما ألقى السلاح فى وسط المعركة من أجل فتاته التى اغتصبها منه صديقه وزميله أغاممنون ، ولم يمسك بالسلاح ضد أعدائه الا بعد أن وجد أغاممنون قد خر صريعا — على الرغم من كل ذلك فالبطل أشيل ينتمى الى شعب بعينه ، وهو لم يدخل المعركة الا من أجل نصرة شعبه ضد أعدائه (٢) • وعلى ذلك فهذه الملحمة وغيرها من الملاحم انما تتفق فى موضوعها كل الاتفاق مع الحكاية الشعبية كما شرحناها •

وبالمثل فان السير الشعبية كلها تعبر عن موقف بطل ينتمى الى قبيلة بعينها • وهو يتزعم هذه القبيلة أولا وشعبه العربى بأسرة ثانيا • وهدفه من وراء هذه الزعامة تغيير القيم الاخلاقية والنظم الاجتماعية والسياسية فى مجتمعه • فهو بطل يناضل فى الداخل والخارج • ومن هذا الكفاح يبرز البطل وتبرز القبيلة التى ينتمى اليها • ويكفى أن نشير فى ذلك الى سيرة ذات الهمة وسيرة عنترة وسيرة الظاهر بيبرس ، فهى جميعها تهدف الى خلق مجتمع جديد ونصرة شعب عاش طويلا فى ظلال الفوضى والعبودية •

***

ولعل القارىء بعد كل هذا قد أدرك الفرق الجوهرى بين الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية • ولا يتمثل هذا الفرق فى أن الحكاية الخرافية تعيش جو من السحر ، فى حين أن الحكاية الشعبية تعيش فى جو واقعى • فالحكاية الشعبية تعرف كذلك صنوف السحر المختلفة

---

(١) E. V. Rieu • The Iliad, P. XIV. (London 1453)

(٢) انظر مقال (بين الملحمة الادبية وملحمة الوقائع الحقيقية) للمؤلف مجلة « المجلة » العدد الثالث ١٩٥٧ م.

وتعرف أشكال العالم المجهول ـ كما رأينا فى حكاية الاسكندر وحكاية عمر النعمان ـ بل ان الانسان فى الحكاية الشعبية يشعر بعلاقة قهرية بينه وبين هذا العالم • ومع كل هذا فان تصوير السحر والعالم المجهول يختلف فى الحكاية الشعبية عنه فى الحكاية الخرافية • فعلى الرغم من أن الانسان فى الحكاية الشعبية يؤمن بالسحر وبأثره الفعال فى حياته ، فانه مازال ينظر اليه بوصفه قوة منعزلة عن حياته الواقعية • وبالمثل فان العالم المجهول يجذبه اليه وهو يود معرفته • ومن أجل هذا السبب يقوم بمغامراته ، ولكنه ما يلبث أن يشعر بجلالة هذا العالم وروعته ، وما يلبث أن يرتد الى عالمه الواقعى مدركا أنه انما ينتمى الى هذا العالم المعلوم وان كان للعالم المجهول سيطرة كبيرة عليه •

كما أن شخوص الحكاية الشعبية لا ينقصها العمق الجسدى أو الروحى وانما هى تعيش فى الزمن • فهى تعيش الحاضر بما فيه من حوادث وتعيش الماضى الذى عاشه أجدادها وتعيش المستقبل الذى يعيشه أبناؤها • هذا فضلا عن أنها تعيش فى المكان الذى تلعب فيه الحوادث دورها • فالبطل ليس مغامرا فحسب ، شأنه شأن بطل الحكاية الخرافية ، وانما هو بطل يبغى المعرفة ويبغى الحوادث التى يعيشها • سواء أكانت فى العالم المجهول أم المعلوم • أى أن شخوص الحكاية الشعبية تنمو من القلق الذى يعتمل فى نفس الانسان ، ومن احساسه بالقوة الاسرة التى تربطه بمن حوله وبما حوله ، وبالزمان والمكان ، وبالحوادث التى يعيشها • وهى تتحرك من خلال ذلك فى واقع قائم ليس فى وسعها أن تنفصل عنه •

لقد استطعنا حتى الآن أن نميز بين الاسطورة الكونية وأساطير الاخيار والاشرار والحكاية الخرافية والحكاية الشعبية تمييزا أساسيا ، فكل نوع من هذه الانواع ينبع من دافع روحى محدد ويؤدى وظيفة محددة •

ونحن نود الآن أن نجمع مرة أخرى بين الاسطورة والحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ، فندرسها من زاوية محددة ، أو بالاحرى

ندرس ظاهرة واحدة ترد فى كل منها وهى ظاهرة ميلاد البطل .

ولما كانت ظاهرة ميلاد البطل تعد جـزءا أساسـيا فى الروايات الشعبية أيا كان نوعها ؛ ولما كان ورود هذه الظاهرة فى الانواع السابق ذكرها أمرا يلفت النظر ؛ فقد شئنا أن نبحث هذه الظاهرة بحثا مستقلا تحت عنوان « ميلاد البطل » .